كائن العزلة

رواية

محمود الغيطاني



كائن العزلة

رواية



كائن العزلة

المؤلف :
محمود الغيطاني

الطبعة الاولى :
يناير 2006

رقم الإيداع:
١٢٠٥٥/ ٢٠٠٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N.
84-931366-13-2

لوحة الغلاف:
الفنان أحمد الجنايني
تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيك

EDITORIAL HISPANO-EGIPCIA SANABEL

الإشراف العام
د. طلعت شاهين

مكتب القاهرة :
ص.ب.: 22
الحي المتميز . مدينة 6 أكتوبر
مصر

Tel.:
(+20) 2 835 40 69
Mob.:
(+20) 12 410 20 08
e-mail:
sanabook@maktoob.com
sanabook@hotmail.com

إهـداء

إلى...
محمد كمال البعلي...
محمد سيد سلطان...
رغم اصطخاب الحياة،
فالصداقات لا بد أن تدوم

''إننا نعيش في عصر لا يحمل فيه سوي الثقلاء علي محمل الجد،
و إني لأحيا في رعب من ألا يساء فهمي''

''الوطنية هي فضيلة الشرير''

أوسكار وايلد

غسق التأودات

في الغسق الأخير من الليل، كانت دوامـــات غريبـــة مـــن الوحدة بدأت تنتابني، كان الأمر أشبه بكائن ما منعزل في فراغه تلفه دوامات قوية لتطرحه بقسوة في أعماقها. تملكني الشـــعور الغريب فانقشعت رغبتي في السبات. أفتح عينيّ بـــبطء علـــى اللاشيء. لم يكن في رأسي شيء، كأن مساحة هائلة من الفراغ قد تملكتني فانقشع من رأسي كل ما كنت أعرفه منذ ميلادي، يا لها من حالة غريبة. أحاول جاهدا تذكر آخر ما فعلته، أو قرأته قبل تعمقي في النوم، فأعجز عن التذك. أتمسك بأهداب الذاكرة مستميتاً إلا أن حالة العجز المسيطرة عليّ كانت قـــد افقـــدتني الذاكرة تماما. ينطلق إلى أذني صوت، يبدأ ضعيفاً واهناً ثـــم لا يلبث أن يشتد في عتمة الليل. أسمعه متناغماً متهادياً متصـــالحاً مع ذاته، وكأنه يتراقص بنعومة على موجات أثيريـــة تتهـــادى دون رؤيتها. أيكون الأمر مجرد حلم أم هو هاتف من تلك التي تقتحم غشية الآخرين في نهايات الليل؟ لابد أنه كذلك، فأنا لـــم أعد أسمع شيئاً على الإطلاق. كل ما هنالك ذلك الصمت الثقيل ذو الطنين الذي يكاد أن يضغط على طبلتي أذنـــيّ فيمزقهمـــا. ولكن ها هي تلك الصرخة الحادة التي انفلتـــت فجـــأة ليعـــود الصوت أكثر تناغماً. كان الصوت أنثوياً متغنجاً في انطلاقتـــه الأبدية، وكأنه قديم قـــدم الأزل، أو تكـــون صـــاحبته إحـــدى

العاهرات التي اصطحبها أحد الجيران في الليل؟ أم تكون إحدى الزوجات؟ هاهو صوتها قد أصبح أكثر تحديداً واتساعاً في مساحته. أسمعها تتأود، تتدلل، تعاتب صاحبها الذي لابد أنه يضاجعها الآن بكل قوته. لابد، فانطلاقاتها الشبقة صارت أكثر شطحاً من ذي قبل. أسترق السمع بشبق عجيب متخيلاً صاحبته في وضعها الذي لا بد أن تكون عليه الآن. لا بد أنها تمتلك نهدين نافرين يرفضان الاستقرار في الفضاء المحيط. صوت صرخاتها المنتشية يدل على أنها تستطيع معاشرة الكثير من الرجال في آن واحد. لا بد أنها شديدة الرغبة. أتخيلها فأشعر بنشوة حارقة تسري في جسدي.. كم أود أن أراها الآن، أتذكر صديقتي ذات الكفين المكتنزتين، أين هي الآن؟ كم أشتاق إليها في تلك اللحظة المستعرة. لها وجه كوجه الله في جماله. حينما تهلّ عليّ في كل هلّة من هلاّتها أري فيها وجه الله. أليست دليلاً على وجوده؟ أذكر أن أحد أقطاب الصوفية قد ذكر ذلك، لكنني أعجز عن تذكر اسمه الآن. يا لتلك الحالة المستعصية من الهذيان، أحاول الخروج من مستنقع النسيان الذي تسبح فيه ذاكرتي، أبدأ في استعادة ذاكرتي شيئاً فشيئاً، بينما الصوت الشبق، الهادئ، الحاد قد تحول إلى ما يشبه الخلفية الموسيقية للمشهد الذي أعيشه الآن. حينما وقعت عيناي على الورق المبعثر في أرجاء الغرفة انقشعت ظلال التهويمات التي كانت تتملكني فصار التذكر واضحاً ذا ألق أخاذ. أجل، لقد أخذتني سنة عميقة من نوم بعد ما استنفدت طاقتي تماماً في الكتابة عن

فيلم "أسرار البنات" للمخرج "مجدي أحمد علي". أذكر أيضاً أني أطلقت على مقالي"صفعة علي وجه المجتمع". يا لهذا المجتمع المريض الضحل. أشعر أنه يكاد يخنقني حتى أموت غيظاً كلما تذكرت ما قدمه لنا ذلك الفيلم. أنهض من فراشي مستثاراً. أقول بسخرية:

- يا لتلك المتأودة.. ألا تدري أن صوتها يسري مع الليل فيصل إلى أمثالي من المصابين بالغلمة الجنسية؟!

اتجه صوب الثلاجة متناولاً إحدى زجاجات النبيذ. هي الوحيدة سلواي في مستنقعي الذي أعيش فيه. أجرع كأسي دفعة واحدة فأشعره لهيبياً ممتعاً يهبط متسارعاً إلى معدتي من خلال مريئي الملتهب. أجلس علي مكتبي مراجعاً ما كتبته قبل نومي. أجمّع أوراقي المبعثرة ساخرا من نفسي:

- يا لتلك العادة القبيحة التي لا أستطيع التخلي عنها.

كنت قد تعودت دائماً بعثرة أوراقي أثناء الكتابة، ولولا أني أرقم دائماً الصفحات التي أكتبها لأخذتني الحيرة كثيراً في تجميعها. بعدما اطمأننت إلى جودة ما كتبت انطلقت صرخة أخيرة حادة من تلك المرأة. أشعرها دافئة، وقحة، متعبدة. أنتظر سماعها مرة أخرى إلا أنها تلاشت تماماً. يبدو أنها كانت صرخة المتعة الأزلية التي تترك بعدها الروح جسدها لترحل في عوالمها الخاصة بها. أعرف أنها تذهب في تلك الرحلة إلى شطآن وبحار غاية في الإبهار ثم لا تلبث أن تملّ تجوالها فتعود

مرة أخري حاسرة باكية إلى جسدها الثقيل. تمتــد يــدي إلـــى الهاتف بعد نفاذ صبري في عودة الصـــوت المتغـــنج. تتتـــالى أصابعي في الضغط علي الأرقام في متتاليـــة عدديـــة عجيبـــة أحفظها عن ظهر قلب. بعد قرون مـــن الـــرنين المتقطـــع ذي الصوت الغليظ يأتيني صوتها الواهن النـــاعس مـــن الطـــرف الآخر:

– هل أصابتك نوبة جديدة من الجنون؟

تقولها ببطء ناعس بينما تأكل العديد من الحروف؛ فـــأعود إلى عوالمي الأولية الأولى. تلك العوالم الطاهرة النقيـــة التـــي أفسدتها تجارب الحياة وقيود المجتمع المثقل بالعديد من الأوهام. أقول بعد فترة فكرت فيها كثيراً بماذا أرد عليها ولماذا هاتفتها:

– ماذا تفعلين؟

تنطلق منها ضحكتها الناعسة المجلجلة التي أعشقها كثيراً. كانت صافية واضحة لها انسحاب بطيء أخـــاذ فـــي نهايتهـــا، فتشعرك بأنها تتغنج علي الرغم من عدم قصدها كي توحي لك بذلك الإيحاء:

– أتهاتفني قبيل الفجر بدقائق لتسألني ماذا أفعل؟ يا لـــك مـــن مجنون.

– شعرت برغبة شديدة في رؤيتك.

– الآن؟

– ولم لا؟

– أما زلت تكتب حتى هذا الوقت المتأخر؟
– لا. . لقد أخذني النوم بعد كتابتي، إلا أنني استيقظت منذ نصف الساعة، وشعرت بالرغبة في رؤيتك.
– يبدو أنك شربت كثيراً.. أرجو أن تدخل حمامك الآن كي تفرغ ما في معدتك ثم تتجه لسريرك مباشرة.

كنت أغتاظ كثيراً حينما تخاطبني هكذا كالطفل. أنفجر فيها ناهرا:

– ألم أحذرك كثيراً من مخاطبتي بتلك اللهجة؟

تقول مسرعة محاولة امتصاص غضبي:

– لا تغضب حبيبي.. فقط أقصد مداعبتك.

تصمت برهة لتستدرك:

– قل لي.. ماذا هناك؟
– لا شيء علي الإطلاق.. شعرت بالرغبة فيك، وأن تكوني بجانبي.. أما الآن فالرغبة الوحيدة المسيطرة عليّ هي إغلاقك لسماعة هاتفك حتى لا أغلق في وجهك.

تقول بطريقة توحي لي أنها تبتسم:

– لا عليك.. سوف آتيك.. ولكن قل لي ماذا هناك؟

أقول وقد هدأتني بسمتها التي رأيتها بخيالي:

– استيقظت على صوت أنثوي يكاد أن ينفجر من المتعة فشعرت بالحاجة إليك.

تقول بخبث:

– وهل أنت في حاجة إليّ أم إلى المتعة؟

- ماذا تقصدين؟
- إذا كنت في حاجة إليّ كأنثي ذات كيان وكائن مستقل فأنا رهن يمينك، أما إذا كنت في حاجة إلى إطفاء غلمتك فعندي لك علاج سريع المفعول.
- أي علاج هذا؟
- اتجه حبيبي إلى أي ركن من أركان منزلك ومارس عادتك السرية.. انه أفضل علاج لك في تلك الحالة.

أقول مبتسما:

- بل أنا في حاجة إليك؛ فهناك فراغ كبير يحيط بي حتى أنه يعزلني عن نفسي.

منزعجة:

- لتأخذ حماماً بارداً حبيبي وسأكون عندك قبل أن تنتهي منه.

لينا

كنت قد تعرفت على لينا منذ وقت ليس بالطويل، كنا فـــي شهر ديسمبر بلذعته القارصة، حيث تنقلب الطبيعة على ذاتهـــا مفرغة كل ما في جوفها من غضب على الإنسان. كانت السماء قد أظلمت قبيل المغيب حتى أنك لتظن الوقت قد انتصف ليلــه، وكانت حركة السحب السريعة التي حبلت بها السماء تدل علـــى أنها ستكون إحدى تلك الليالي الممطرة التي تظل فيها الســماء ترعد غاضبة طوال الليل، لتسكب كل ما في جوفها من مياه كي تترك العالم ذات صباح وقد غسلته تماماً من أدرانه القذرة التي نصنعها بالطبيعة الصافية. كثيراً ما كان الاكتئاب يتملكني فـــي مثل هذه الأوقات، على الرغم من حبي الشديد للأمطـــار حتـــى أنني قد أسرع كثيراً للخروج إلى عرض الشارع كـــي أغتســـل بمياه الأمطار تماما كما يفعل الأطفـــال؛ إلا أن تلـــك الطبيعـــة القاسية المظلمة العابسة كانت تخيفني إلى حد كبير، كثيراً مـــا تنقبض نفسي المائلة دائما للسوداوية على ذاتها كأنهـــا إحـــدى الكائنات الهلامية الضعيفة المنكمشة داخل محارتها تخوفاً مـــن خاطر ما. حينما أظلمت السماء بشكل فجائي في ذلـــك اليـــوم شعرت بضيق شديد يكاد أن يخنقني، حاولت تبديد وحدتي التي خلقت بها وكأنها تلازمني منذ الأزل، هل هي قديمة قـــدم الله أم أنها تلازم بعض هؤلاء الذين لا يدرون معنى لحياتهم؟ حاولت

التغلب على تلك الحالة المميتة بطريقتي الخاصة جـداً، والتـي أمارس فيها طقوسي الحميمة على جهاز الكمبيوتر الخاص بي، حيث أضع السماعات على أذني مديراً مجموعة مختـارة مـن الأغنيات لأغرق تماماً مع الصخب العالي الصادر عن تلك الآلة الصماء التي تتحول إلى صديق مخلص في تلك الأوقات. حينما بدأت أتوحد مع تلك الآلة العجيبة التي تنقلني إلى عوالم أخـرى لا أجد لها مدداً، حتى لكأنني أحد أقطاب الصوفية قد توحد مـع الله في عليائه، فأخذت تحولني من حالة إلى أخرى حتى يتلاشى الجسد تماماً، وتخرج الروح من ثقلها المادي في جولة لا نهاية لها متلاشية مع الأثير الذي يطرحها بقسوة في نهاية تجوالها كي تعود مرة أخري إلى ثقلها المادي البغيض، انتبهت فجأة علـى صوت الريح العاوية كعواء حيوان مجروح، كان ذلك الصـوت يخيفني كثيراً فأتخيله صوت أحد الكائنات يلفظ أنفاسه الأخيـرة في شيء غير قليل من الألم مما يجعلنـي غيـر قـادر علـى الاستقرار المطمئن، فأضغط أذني بكلتى يديّ كاتماً ذلك الصوت حتى تكاد طبلتيّ أذني أن تنفجراً من فـرط الضـغط عليهمـا. أحاول الهروب من تلك الحالة الكئيبة من الفوبيا، التي لا أدري لها سبباً. علّها البدايات الأولي في التنشئة، كثيراً مـا تطمـس بدايات الأشياء من ذاكرتي فأجهلها تماماً كي تصبح النتائج هي اليقين الوحيد في حياتي. أجري اتصالاً مع البعلي متفقاً معه أن يقابلني في وسط البلد. يا لهذا المكان الذي أعشقه متوحداً معـه إلى حد التلاشي. كان قد استقر في ذاتي منذ القدم حتـى لكـأن

الأمر قد صار عقيدة خاصة بي أنه المكان الوحيد الذي تستطيع أن تتلاشى فيه وسط الناس بضجيجهم المؤلم. المكان يعج دائماً بمريديه لا يكاد يخلو لحظة واحدة، هنـــاك تســـتطيع أن تـــري كرنفالاً حياً من الحيوات الإنسانية المتناقضة، المتداخلة، المتفقة إلى درجة الوجد الصوفي. تاريخية الموقع تكسبه بهاءً خاصاً به ذا قدسية حتى لكأنه ليس من تلك المدينة الغارقة فـــي ســـباتها الليلي؛ فهنا يوجد قانون خاص مختلف تماماً عن قوانين أطراف المدينة، على الرغم من تاريخية المباني بمعمارها العتيق إلا أن يد التغيير القبيحة قد امتدت إليها لتعمل على تشويه ذلـــك الفـــن الجميل، كنت ألمح ذلك دائماً كلما تجولت في ذلك المكـــان ذي القدسية الخاصة، فتجول عيناي بلا إرادة منّي، وكأنني لا أمتلك القدرة على توجيهها مقارنة بين الواجهـــات الســـفلية للمبـــاني بطابعها الحديث، وبين الواجهات العلوية ذات المذاق التـــاريخي الخاص. كانت مبنية جميعها على الطراز الفرنســـي الإيطـــالي القديم، وعلى الرغم من ذلك الجمال الحـــاد المنـــدثر حـــرص الباعة، وأصحاب محلات الأحذيـــة والملابـــس علـــى تشـــويه الواجهات الســـفلية لمحلاتهـــم ذات الطـــابع الكوزموبوليتـــاني الحديث، لكل منهم ذوقه الخاص في التشويه مما أكسب المكـــان تنافراً وحشياً عجيباً لمن يراه للوهلة الأولى إلا أن العين بمضي الوقت سوف تتعرف على المكان بكل متناقضاته، فيصير الأمر طبيعياً تماماً، وكأنه لا يمكن أن يكون إلا هكذا. ســـاهم الباعـــة الجائلون على الأرصفة العريضة في تشويه المكـــان بنـــداءاتهم

المتنافرة، وأجهزة الكاسيت ذات الضجيج التـــي تبـــث خليطـــاً ممجوجاً من الأغاني الهابطة، التي تدل على تـــدني وضـــحالة المستوي الفكري الذي صرنا نعيش فيـــه. لســـت أدري كيـــف يستطيع هؤلاء البشر تحمل ذلك الصوت الضوضائي المرتفـــع من الكاستيات المختلفة. يلكزني أحدهم بمرفقه بقوة لترتفع يدي على صدري الذي ضاق نتيجة ارتطامه العنيف بذلك الرجـــل. أنظر تجاهه إلا إنه غاب وسط الضجيج العجيب دون أن يأبـــه لذلك الذي ارتطم به. أنتبه على خليط الأغـــاني المختلفـــة ذات النشاز العجيب مما جعلني أفكر فيما يسمعونه، هل من الممكـــن أن تكون مثل هذه الأصوات الشاذة ذات النشاز غير المحتمـــل معبرة عن فن ما؟ أم أن العيب في أذني التي فقدت موســـيقيتها منذ زمن بعيد؟ بالتأكيد هم الجهلاء، وإلا ما استمعوا إلى ذلـــك الذي يصرخ بصوته المشروخ الذي يكاد أن يصم الآذان قـــائلاً "أنا باكره إسرائيل". يا لهؤلاء الحمقى... كيف يعتبرون ذلك فناً، ثم يتجرأون فيما بعد ليقولوا بكل فخر وعلى الملأ هكذا عيانـــاً بياناً نحن أصحاب حضارة عمرها سبعة آلاف عام؟ أية حضارة بائسة تلك التي يلوكون بها ألسنتهم ليل نهار؟ لا بد أنها حضارة المجاذيب والمتعهرين من هؤلاء الذين يشكلون الطبقة الدنيا في سلم التطور الإنساني لذلك الكوكب البائس. اشتداد الريح التـــي تكاد أن تخلعني من على الأرض جعلني أفيق من تأملاتي الناقدة دوما لكل ما حولي؛ فانكمشت على ذاتي من فرط البرودة حينما مررت بجوار الأمريكين قادماً من شـــارع 26 يوليـــو متجهـــاً

صوب شارع طلعت حرب، أتوقف قليلاً لمطالعة الكتب المعروضة مع ذلك البائع المرابض دائماً بجوار الأمريكين. وقفتي الطويلة المتأملة جعلته يستريب بي فوقف بجانبي متحفزاً بعد أن كان منكمشاً في معطفه الثقيل. أيظنني من سارقي الكتب ذلك الأبله؟ أتركه ضاحكا ساخراً من هؤلاء المتثقفين المتأدبين الذين حسبوا علينا هباء. كان الكثير منهم لا يعدو مجرد صعلوك أو لص لم يقرأ في حياته أكثر من كتاب أو اثنين، هذا إذا كان قد قرأ بالفعل، ثم يأتي إلى أماكن تجمعاتنا الثقافية متلصصاً، في البداية كي تراه في نهاية الأمر جالساً معك هكذا دون أن تشعر كيف ومتى تم ذلك؟ فتلتصق به صفة المثقف على الرغم من جهله الشديد. هؤلاء هم الذين ألصقوا بنا تهمة سرقة الكتب، ولعل ذلك الشعرور الذي كثيراً ما تراه في جميع مقاهي وسط البلد، التي يتجمع عليها أمثالنا هو السبب الرئيسي في تلك السبة التي التصقت بنا. كنت كثيراً ما أراه على زهرة البستان بلهجته الريفية القادمة من أعماق الريف، يحّدث أحداً أو يطلق هراء ما يسميه بقصيدة جديدة له، فأندهش من هذا الذي يظن نفسه شاعراً على الرغم من جهله المطبق بكل مقتضيات الثقافة. حتى العروض العربي والموسيقي الداخلية لا يعلم عنهما شيئاً. أذكر ذات مرة حينما تحدث معي وحدثته عن رواية "الصخب والعنف" لوليم فوكنر، وأسلوب البناء الروائي ذي الطابع الهندسي فيها. وقتها رأيته قد التزم الصمت، وعبس وجهه الذي اسود إلى أقصى درجات السواد، حتى لكأنه قد

صار متفحماً، أو أن والداه قد ماتا لتوهما. رغبة سادية عميقة تملكتني وقتها فرغبت في إحراجه إلى أقصى درجات الإحراج، لم أدر لم أصررت على فعل ذلك، إلا أنني أدركت فيما بعد حينما جلست جلسة هادئة مع ذاتي أنه كان يستحق ذلك حتى يكف عن تبجحه كثيرا بانتسابه إلى المثقفين، هؤلاء المظلومين دوماً بسبب أمثاله من حثالة المجتمع البغيض. هذا المجتمع الذي يحمل جميع أفراده تقريباً فوق أكتافهم كرات غليظة من العظم السميك المفرغ. حينما عددت له الكثير من النظريات الأدبية، مثل الكتابة عبر النوعية، وما بعد الحداثة، والتفكيكية، رأيت عينيه قد أظلمتا تماماً، وبدأ ينكمش في ذاته حتى أنه ذكرني بنفسي حينما تنتابني تلك الحالة من الانكماش، وكأنني كائن هلامي في محارته حينما تغضب الطبيعة. هاجس ما انتابني كي أرحمه، إلا أن رغبتي السادية المستميتة داخلي كانت تدفعني إلى إيذائه أكثر، ذكرت له "موبي ديك" لهيرمان ميلفيل، تلك الملحمة التي قلما يتحفنا بها التاريخ. كلامي المليء بالعديد من الاصطلاحات الصعبة على الفهم جعله يحمل ديوانه الذي أصدرته له إحدى دور النشر الحكومية البلهاء التابعة لوزارة الثقافة، والتي كانت تتخبط كثيراً في سياسات النشر بها متخذة من الشللية والرشاوى والمعارف وسيلة للانطلاق وطباعة الكتب لذوي العاهات الثقافية. كنت أتأمله من على منضدتي التي تركها للتوّ كي يغادر المكان آسفاً على لقائي، بينما يده التي تحمل عصاه تساعده في الركض بعيداً. لمت نفسي قليلاً من الوقت

على ما فعلته معه، إلا أن قناعاتي الخاصة بأن هؤلاء الأغبياء ذوي الرؤس الفارغة لا يستحقون سوي ذلك حتى لا يشـوهون ثقافة المجتمع المشوه جعلتني أرضى عما فعلته.اشتداد الـريح العنيف جعل العديد من الباعة الجائلين يجمعون أشياءهم بينمـا رؤوسهم تدور فيها العديد من الأشياء التي سـيفعلونها حينمـا يذهبون إلى زوجاتهم. كان أحدهم يبتسم لنفسه فتأكدت مخمناً أنه يمني نفسه بعشاء ساخن تفوح منه رائحة الطعام المنزلي الدافئ، ثم لا يلبث أن يضاجع زوجته في برد ديسمبر القارص هذا كي يتحولا معاً إلى شعلتين متوهجتين من الجمر تكادان أن تحرقـا فراشهما من فرط الرغبة اللاهفة. بالتأكيد سيضـاجعها حتـى الصباح، وبالتأكيد ستكون سعيدة بذلك الحب الليلي الأخاذ الذي سيأخذ روحها بعيداً عن جسدها في رحلة أبدية تتحـرر فيهـا بعض الشيء من ثقل الجسد. يا لتلك الرحلة الجميلـة المليئـة بعوالم غير مرئية. أعرف أيضاً أن روحيهما حينما سـتعودان إليهما سوف يتدثران ببعضهما البعض تحت أحد الأغطية الثقيلة ليغطان في نوم عميق هانئ، بعد أن أشبع كل منهما نهمه نحـو الآخر. أفيق على زخات رقيقة من المطر بدأت تتسـارع فـي التساقط. كنت قد وصلت إلى منتصف الميدان. أمـامي تمامـاً جروبي بمعماره القديم المحافظ على تاريخه، بينما مكتبة الحاج مدبولي في ظهري تماما. أمر بجوار حـزب التجمـع لأتخـذ الرصيف المقابل. أتأمل نوافذه المغلقة في ذلك الوقت المتـأخر بزجاجها العسلي اللون. تقع عيناي على الشارع القصير الكائن

فيه مدخل الحزب أمام الأتيليه مباشرة بشيء من الانحراف. شارع كريم الدولة. أردد الاسم بصوت خافت كما يحلو لي دائماً كلما وطأته قدماي. أنتبه على نظرات أحدهم يتأملني مستريباً. يبدو أنه يظنني أحد هؤلاء المعتوهين يتحدث مع ذاته. أذكر هشام بيومي بوجهه الأبيض المكتنز دوماً المائل إلى الاحمرار وكأنه سينفجر للتوّ. كانت له طريقة سمجة مقززة في استدراج وتكوين كوادر شبابية تؤمن باتجاهات الحزب وأيدلوجيته الخاصة. على الرغم من سماجة أسلوبه المفضوح بالنسبة لي إلا أنني كنت أتقبله عن طيب خاطر، ربما لحبي الشديد واعتزازي بصداقته. كنت ما زلت في سنوات التكوين الأولى، أو ربما قد غادرتها ببضع مراحل، فكنت أقبل منه دائماً الكتب التي يهديها لي بغرض غسيل مخي وملئه بالأفكار الاشتراكية والشيوعية، التي أحبها وأومن بها إلى حد كبير، فكنت أستزيده كي يعطيني المزيد. أُدرك جيداً أن اصطناع السذاجة هي أفضل الطرق للوصول إلى أعماق من أمامي. تتمثل أمام عيني العديد من الندوات واللقاءات الثقافية التي حضرتها في ساحة الحزب الذي كان في يوم من الأيام مكاناً دائماً لإقامتي. أذكر سيد حجاب وطريقته الخاصة في إلقاء أشعاره، مجدي حسين يوم احتدت بيني وبينه المناقشة داخل قاعة دويدار بالحزب عن معنى الثقافة ومدي تحمل الكاتب للكلمة التي يقولها. أذكر أحد كوادر الحزب الشيوعي المصري، الذي كان قد خرج لتوّه من المعتقل، وقد أعجب بي أثناء نقاشي مع مجدي حسين، الذي أبدى احترامه لي

في ذات الوقت. حاول كل منهما وقتها جذبي إلى صفه وقناعاته الخاصة، حتى لقد طلب مني مجدي اللقاء به في مقر جريدتـــه، لأنه يسره أن يجلس متحاوراً معي. كانت لي قناعاتي الخاصـــة وثقافتي التي أتكيف معها فلم أهتم بهذا ولا ذاك. يا لتلك الأيـــام التي ضاعت ولعلها لن تعود مرة أخرى. كنت أدري جيـــدا أن السياسة مجرد لعبة قذرة فكنت أحرص على التماس مع دائرتها دون الوقوع داخل فخها الضحل. أسرع الخطـــو تجـــاه الممـــر الكائن في داخله مقهى"أفتر ايت" حيث اتفقت مع البعلـــي علـــى اللقاء منذ ما يقرب من الساعة. وقتها كنـــت أحـــاول الهـــروب جاهداً من خلوتي القاسية التي أشعرتني بالخوف. لم أدر وقتهـــا بمن أتصل أو أقابل؛ كنت اعتدت منذ زمن بعيد على الوحـــدة. واستكفيت بعلاقتي مع ذاتي مستبدلاً بها علائق الآخرين. أذكـــر أن أحد الصوفية ذكر ما يشبه مثل هذا القول. وقتها لم يتبـــادر إلى ذهني سواه ليدفع عنّي وحشتي. ومن غيره يســـتطيع فعـــل ذلك، وهو الوحيد الذي ما زلت محافظاً على صداقته حتى الآن؟ كان من أكثر من عرفتهم ثقافة وإخلاصاً. لم تكن لـــه مـــآرب أخرى على الإطلاق سوى صداقته لي. المكان شديد الازدحـــام مما يزيد الممر ضيقاً. لست أدري لم صمم على اللقـــاء هنـــا. عرضت عليه زهرة البستان إلا إنه أبى ذلك. له بعض مبرراته المقبولة إلى حد ما. لكن المكان هنا يضج بزائريه من الشباب. معظم الجالسين من الفتيات والشباب في مقتبل العمر. جمـــيعهم بلا استثناء ينهمكون في أحاديث جانبية تشعلها الثقافة والرغبـــة

المتأججة داخلهم منذ الأزل لتفريغ شحنات الجنس الحارقة بينما أفواههم تتبادل الكلمات بمباسم النارجيلة. أبحث عنه بين الوجوه المصطخبة فلا أراه. أسمع صوته يأتيني هادئاً بعمقه الرزين المألوف من خلال ذلك الدهليز الجانبي الذي يعد امتداداً للمقهى الصغير المزدحم. كان الممر على يميني تماماً، أراه يجلس على طاولته مشاركاً إحدى الفتيات في جلسته. شاب ما كان يجلس بالقرب منهما، إلا إن جلسته كانت توحي لمن يراه أنه يشاركهم الجلسة ولا يشاركهم في ذات الوقت. التبس عليّ الأمر حينما اقتربت منهم فلم أدر هل أصافحه لأنه شريكهم في الطاولة أم لا؟ كنت أتمنى قيام البعلي بذلك الواجب نيابة عنّي. ما كدت أن أقول له:

– أهلا يا بعلي.

إلا وقام متطوعاً بتعريفنا على بعض. عرفت أنه أحد الأصدقاء وذكر اسمه لي إلا إن ذاكرتي لم تعد تسعفني الآن لتذكره. كانت الفتاة الجالسة معهم بنتاً خلاسية جميلة إلى حد بعيد. لفتت نظري حينما وقعت عليها عيناي إلا إنني صافحتها ثم جلست مرحباً بهم. يداها المكتنزتان أول ما لفت نظري إليها. تمتلك يدين ذات ملمس حريري، حتى لكأنك تخشى من جرحهما حينما تصافحها فتضطر إلى سحب يدك بسرعة، وكأنما أصابتك صاعقة حتى لا تخدش ذلك الجمال الأخاذ. أناملها المسحوبة المدببة على أظافر طويلة كمخالب القط تكاد أن تأثرك فتأخذك بعيداً إلى عوالم نورانية لا تدري لها مدداً. كأن طلاء أظافرها

ذا اللون الأحمر القاني يذكرك بأول نقطة دم أريقت على وجـــه الأرض، حينما قتل قابيل أخاه هابيل من أجل امرأة. هـــل مـــن الممكن أن أقتل من أجل هذه الخلاسية ذات الكفين المكتنـــزتين؟ تعلقت عيناي بكفيها فلم أستطع أن أبعدهما. ربمـــا تكـــون قـــد لاحظت ذلك. فهمت هذا من حركة يدها العصبية علـــى علبـــة سجائرها المارلبورو حينما أخرجت إحدى الســـجائر ودعتنـــي لمشاركتها على سبيل التحية. تناولت السيجارة منهـــا وأنـــا أود تقبيل تلك اليد الممتدة إليّ. عوضت رغبتي في التقبيل بتقبيـــل السيجارة بديلا عن تلك الكف الرائعة. سمعت البعلي يقول:

– لينا.. مترجمة، ولها العديد من القصص الجميلة.

أومأت لها برأسي فردت تحيتي ببسمة اتسعت على أثرهـــا شفتاها الممتلئتان اللتان تدعوان للتقبيل في وضح النهـــار. يـــا لهاتين الشفتين، بهما دعوة دائمة للرغبة الملتهبة، يزيد من ذلك الإحساس تلك الانفراجة البسيطة التي بينهما. عيناها لهما سواد حالك شديد الحلكة حتى أنك تظن نفسك قد غرقت في ليل شديد الظلمة، يحيط هذا السواد بياض ناصع لا شـــبهة فيـــه. كـــان التناقض الشديد بين الأبيض والأسود مع اتساع حدقتيها يعطيها نوعاً من الجمال النادر. جمالها البـــارع مـــع حركـــة شـــفتيها الشهوانيتين اللتين تدلان على رغبة عميقة مستعرة فيهـــا منـــذ الأزل جعلاني أضج بجمالها الذي ضاق به المكـــان. حاولـــت الانصراف عن تأملها بحديثي مع البعلي. ذكر لي أنه قرأ مقالي عن فيلم"أرض الخوف":

– مقالك الأخير عن أرض الخوف حيرني معه كثيراً.

- كيف ذلك؟
- حديثك عن الميتافيزيقا وقصة الخلق وقبول آدم الأمانة ثم هبوطه على الأرض، كل تلك الإسقاطات الدينية الخطيرة كيف استطعت استخراجها من الفيلم؟ لقد رأيته مرتين تقريباً ولم ألحظ ذلك إلا من خلال مقالك.

كان يتحدث وكأنه حفظ ما كتبته. ترتسم على وجهي بسمة هادئة متأملة بينما عينيّ تجولان بصبر في رحلة أبدية لا تنتهي مع شعر لينا الأسود. كان لسواد شعرها اللامع كالألق، وانسداله المتماوج كلفائف الحرير على كتفيها سحر غامض لست أدرى مصدره. أتأمل وجهها البرونزي المنصت في اهتمام لمتابعة حديث البعلي. يا لجمالها في إنصاتها الشغوف للمعرفة بينما أناملها الرفيعة المدببة ذات الأظافر الدموية الطويلة تنحي خصلة انسدلت على عينيها. تمنيت في قرارة نفسي أن يعود بنا الزمن للوراء كي تعود خصلتها المنسدلة مرة أخرى على عينيها. كان لها جاذبية آسرة هكذا. دخان سيجارتها النائمة بوداعة مستكينة بين أصابعها أدمع عينيها فأغمضتهما على اللاشئ. كدت أنهض مقبلاً تلك العينين ذاتا الحدقتين المتسعتين خائفاً على جمالهما أن يفسد. أقول بعد فترة صمت خلتها قروناً انقضت:

- أتدري.. على الرغم من احترامي وتقديري لثقافتك العامة إلا أنك أحزنتني لضعف ثقافتك السينمائية.

أنظر لصاحبنا الرابع الذي التزم الصمت طويلاً، وقد بـدأ يتململ في جلسته لأقول:

– إن داود من أكثر مخرجينا اليوم ذكاء، ولذلك تجد العديد من أفلامه عبارة عن تحف سينمائية لا نظير لها.

– لكنه هكذا يتعالى علينا كجمهور سينما بثقافته، أو على الأقل هو يخدعنا ساخراً منا.

أضحك قائلاً:

– أعتقد أن جمهور السينما الحالي يستحق تلك السخرية، لأنه لا يأكل سوي البرسيم على حد قول رأفت الميهي، ولكن الأمر ليس هكذا؛ تصورك خادع إلى حد ما.. داود حينما قدم فيلمه قدمه على ثلاثة مستويات فنية كي يرضـي جميـع فئـات الجمهور.. هناك من سيرى الفيلم على أنه من أفلام الأكشـن والاتجار بالمخدرات، وهناك من سيراه من منظوره الثاني، وهو المستوى السياسي المتخبط والمتأزم الذي يشبه الثـور الأعمى في تخبطه، ليس في مصر فقط، ولكن فـي جميـع بلداننا العربية البائسة ذات البلاهة السياسـية، وهنـاك مـن سيراه من منظوره الأعمق، وهو الجانب الميتافيزيقي الـذي قصده داود عبد السيد مباشرة دون التوقف أمام المسـتويين الآخرين.

– لا أختلف معك أن الفيلم له بعد سينمائي عميق، لكني ما زلت عند رأيي أنه يتعالى علينا.

لم أنتظر من البعلي كمثقف أن يصر على رأيه هكذا. فأنا لا أشك في ذكائه، ولكن إصراره بهذا الشكل الغبي جعلني أحتد عليه إلى حد ما:

– وماذا تريد منه أن يقدم؟ أفلام مثل اللمبي وما شابهها لمجتمع جاهل متهتك لا يسعه التفكير إلا في جهله المطبق وطعامه وتخاريفه الدينية، ثم إرضاء شهواته بالتفكير في عضوه الذكري؟

أنتبه لما قلته فأفكر فيه. نوع ما من الصفاقة أن أقول مثل هذه الألفاظ أمام لينا، خاصة وأنه اللقاء الأول بيننا، إلا أن ضحكتها التي انطلقت مجلجلة في الفضاء الرحب ذي الجو الشتائي الثقيل أخرجتني من حرجي. كانت ضحكتها ذات صفاء عجيب يشعرك بربيعية الجو، وكأن الزهور تتفتح على اثر سماعها لمثل هذه الضحكة كي تمتص رحيقها العذب. أسمعها تنهي ضحكتها الرائقة بذلك الانسحاب البطيء الأخاذ في نهايتها، فتشعرك بأنها ذات غنج موسيقي يأخذك إلى عوالم نورانية ملتهبة على الرغم من عدم قصدها كي تعطيك ذلك الإيحاء. أعطتني ضحكتها نوعاً من الاطمئنان الداخلي فاسترسلت في حديثي الجاد:

– الأمر هنا لا يمكن إخضاعه لمعنى التعالي، فهو يحاول أن يرتفع بمستوى الجمهور إلى مستوى فكري راق، إلا أن تلك النظرة التي نظرتها إليه أنت وأمثالك كانت معطى طبيعيا لما يحدث حولنا في واقعنا المتهرئ، فكيف يستطيع ذلك

الجمهور البائس أن يرتقي إلى مثل هذا السمو الفكري بعد أن تم حصاره حصاراً تاماً في بوتقة الأفلام التافهة المفرغة من محتواها؟

أقول بعد برهة:

– آسف لاحتدادي عليك.. في كلامك شئ من الصحة الناتجة عن جهل الجمهور.

يبدو أن حديثنا الجاد جداً لم يرق ذلك الجالس معنا. انتبهت لذلك حينما بدأ يتململ مرة أخرى ناظراً في ساعته أكثر من مرة، ثم تشاغله بالموبايل الخاص به حتى نهوضه راحلاً متعللاً بشيء ما. أراه ينظر إلى لينا منتظراً رحيلها معه. ينقبض قلبي بقوة حتى كادت أنفاسي أن تنقطع حينما تخيلت أنها قد ترحل معه،إلا إنها اعتذرت له متعللة برغبتها في البقاء. خطواته العصبية الواضحة في مشيته جعلتني أتساءل. هل هو على علاقة ما شبة سرية أو علنية مع لينا؟ هل تكون صديقته الحميمة؟ ولكن مالي وهذا الأمر؟ أهي حبيبتي؟ لم أستطع تحمل فكرة أن يكون بينهما شيئ؛ فتلك الملاك النورانية ذات الكفين المكتنزتين ذات أثيرية خاصة لا يمكن لها أن تهبط لذلك البعد الإنساني المثقل بأعباء المادة.

– ولكن هل رأيت فيلم اللمبي؟

كان السؤال موجهاً إليّ مباشرة من لينا. يا الله.. هل هذا ممكن؟ أتحدثني بذلك الصوت الملائكي موجهة كلامها إليّ مباشرة؟ لم تكن قد حادثتني منذ جلستي معهم منذ أول الليل.

على الرغم من اشتداد البرد حتى أن البعلي انكمش في ملابسه، فبدأ يشبه القنفذ في جلسته، إلا إنني شعرت بنار مستعرة داخل جسدي الخاوي جعلت قطرات متألقة من العرق تسيل في الحد الفاصل على امتداد ظهري. أقول وقد بدأت أشعر بصفاء ذهني نادراً ما كان يواتيني في تلك الليالي المثقلة بالأمطار:

– للأسف لم يسعدني الحظ برؤيته، لقد شعرت برغبة قاتلة تدفعني للإعراض عن رؤيته.

تقول بذكاء:

– وتظن أن لك الحق في الحديث عنه دون رؤيته؟

كنت أعرف جيداً أنها تقودني إلى فخ، فكيف أستطيع الحكم على شئ لم أره بعد؟ أقول مدافعاً:

– على الرغم من عدم رؤيتي له إلا أني تابعته نقدياً من خلال العديد من المقالات... أعرف أن هذا ليس بكاف، ولكن لم لا تحك لي عنه؟

كنت أتابعها مأخوذاً بها وهي تسرد لي القصة. لم يكن في رأسي سواها. تلاشى البعلي والجو المحيط وما ترويه لي تماماً، فتوحدت مع شفتيها الممتلئتين ذاتا الانفراجة النهمة. كانت ذات ثقافة عالية وضحت من كلماتها المختارة بعناية أثناء حديثها. ما إن انتهت من كلامها إلا وقلت لها:

– وتريديني بعد ذلك رؤية فيلم مثل هذا؟ انه ذات المسخ الذي رأيناه في فيلم الناظر، ولكن بشكل أكثر فجاجة.

تقول بينما عينيها تلمع ببسمة أخاذة:

- ولكن أيعطيك ذلك الحق في الحديث عن شئ دون رؤيته؟

كان كلامها منطقياً، فاعترفت بخطأي. أقول موجهاً كلامي للبعلي:

- ولكن كيف ربح هذا الفيلم على الرغم من عدم وجود حكاية كل تلك الملايين التي تساقطت عليه كالمطر؟ هل صار الجميع حولنا بمثل هذه البلاهة الفكرية؟

يقول متعجلا:

- أنظر حولك لكل هؤلاء الجالسين حولنا.. أتظن فيهم الثقافة التي تبغيها في يوتوبياك اللعينة؟ إنهم مجموعة من الشباب المتأزم تماماً كتأزمك الأبدي الذي يكاد أن يكون قد خلق معك، إلا إنك وجدت في تأزمك انفراجة ما بالهروب إلى توحدك مع ذاتك، واعتزال الآخرين مما يجعلني أجزم بأنك مريض لأنك لجأت إلى الهروب من المجتمع بانفصالك عنه بدلاً من مواجهة التغيرات الخطيرة الحادثة فيه وفلسفتها تبعا لثقافتك، إلا إن هؤلاء اتخذوا طريقاً آخر يتناقض معك بالذوبان التام فيما حولهم... انهم أبناء العولمة والكوكبة والأمركة وما إلى ذلك من تلك الاصطلاحات اللعينة التي تضجرنا ليل نهار... لقد تحولوا بالفعل إلى مسوخ فأخذوا من العلم قشوره، ومن الثقافة فضلاتها، ومن الدين بقاياه، وفضلوا أن يكونوا هكذا معجبون بشخصية باهتة مخمورة مغيبة دائماً، لا تحمل سوي المطواة مثل اللمبي بدلاً من

التقوقع على ذواتهم مثلك فيصيبهم الهذيان والأمراض النفسية المستعصية.

– أتراني مريضاً أيها التافه؟

– صدقني لست أراك هكذا، ولكن عزلتك الطويلة التي اخترتها بمحض إرادتك لا بد ستجعلك هكذا يوماً ما.

أرى لينا وقد زادت انكماشاً في مقعدها، بينما يديها المكتنزتين قد ضمتهما بالقرب من فمها لتنفخ فيهما محاولة إعطاءهما شيئاً من الدفء الحميم، الذي لا بد أنه يستعر داخل جسدها. أشفق على ذلك الجمال البرونزي الحي. كنت قد بدأت أشعر بقشعريرة شديدة تسري في جسدي أنا الآخر. أينتقل إليّ شعورها بالبرد لمجرد إعجابي بجمالها اللافت للنظر أم أني قد توحدت معها في إحدى حالات الوجد الصوفية؟ أشعر بشعر جسدي قد بدأ يقف نتيجة الانكماش الذي بدأ يسري في جلدي المقشعر، حتى بات يبدو مرآة وكأنه مليء بالبثور. كم أتمنى زجاجة كاملة من النبيذ المعتق الآن علّه يساعدني على الدفء.

أقترح الأمر عليهم:

– ما رأيكم في كأسين من النبيذ علّه يذهب عنا تلك البرودة القارصة؟

تقول لينا موافقة:

– أظن أنه تفكير صائب.

يرد البعلي برزانة:

– أعرف باراً قريب من هنا أزوره دائماً لسببين هامين؛ أولهما

أنه رخيص في أسعاره على الرغم من نظافته وتميز الخدمة فيه، ثانيهما لأنني أرغب دائماً تأمــل عالمـــه البروليتـــاري البسيط من خلال رواده ذوي الحرف المختلفة، إلا إني أظن أن هجوم المثقفين من أمثالنا لا بد سوف يفسد براءة طفولته البسيطة الساذجة.

تقول لينا، بينما أسنانها اللؤلؤية البيضاء تصطك ببعضـــهما من فرط البرودة:

– دعك من ذلك أيها المتفلسف وهيا بنا.

كان الوقت قد تجاوز الثانية بقليل. علمت ذلك من الراديـــو المفتوح قريباً منّا، بينما صوت المذيعة يعلن العديد من الأخبار السوداوية المتتالية على ذلك العالم البائس. ينطلق صوتها عبـــر الأثير الليلي الهادئ مختلطاً بسيمفونية هادئة من الأمطار التـــي بدأت في التساقط، عن إعلان الرئيس الأمريكي جورج بـــوش الابن بأن المهلة المقررة للعراق كي يكشف عن أسلحته النووية المزعومة قد شارفت على الانتهاء التام، وإنه ليس أمام صـــدام حسين خيار آخر سوى الحرب، التي لا بـــد ســـتكون ســـريعة ومفاجئة. أضحك في سريرتي ساخراً. نخرج ثلاثتنا من ركننـــا المنزوي في مقهى "أفتر ايت" صوب شارع محمـــود بســـيوني المسمى قديماً بالأنتكخانة. لست أدري لم يحرصون على تشويه وسط البلد هكذا حتى في أسماء شوارعها القديمة. تتقدمنا لينـــا لتقع عيناي على ردفيها المحشورين داخـــل بنطالهـــا الضـــيق المصنوع من الجينز. كان لحركتهما اهتزازاً راســـخاً يكـــاد أن

يزلزل وسط البلد بمن فيها. يا لتلك الأرض التي تحمل مثل هذا الجمال المقموع داخل ملابسه، فتحبس قدرته عن الانطلاق الحر في جميع الجهات. كان اهتزاز ردفيها داخل بنطالها الضيق يكاد أن يشعرك بهما راسخين، إلا أنهما لهما انسيابية كانسيابية الماء بين كفيك. لفتة سريعة من لحظها ذي التناقض الحاد بين الأبيض والأسود جعلتني أرتبك حينما لاحظتني أتلصص على جمال ردفيها متأملاً. أشعر بسخونة ما تسري في جسدي ربما من الخجل إلا إن تلك البسمة العذبة التي بدت على محياها جعلتني أكثر جرءة. أتحاول إغرائي تلك الخلاسية الفاتنة، أم أنها تعرف ما لجسدها من سحر في عيون الآخرين فيكون لبسمتها معنى آخر، وهو الفخر بذلك الجسد ذي الهالة الأنثوية الطاغية؟ أتأمل تمثال طلعت حرب في وقفته وسط الميدان وكأنه وجد هكذا منذ الأزل. أقول بسخرية مريرة محدثاً ذاتي:

– ضاعت جهودك هباء أيها البطل بين أيدي حكومات من اللصوص المتعاقبة.

تتجه عيناي نحو مقهى ريش الذي امتدت له يد التغيير القبيح هو الآخر، لم يعد مقهى المثقفين بعد أن شهد صولات وجولات السبعينيات. صار لذوي النقود والطبقات المرفهة. أندهش لمدى التناقض في الأمر؛ فخلفه مباشرة هناك زهرة البستان الذي سحب البساط من تحت قدميه بجذبه للمثقفين والمتثاقفين والدخلاء عليهم والمتعهرين. يا للتناقض الواضح بينهما. كثيراً ما تجرني قدماي نحوه لأجلس على واجهته متأملاً

رواده من الجنسين. في الأيام الأخيرة كثر رواده من المتعهرين والمتعهرات فهجره الكثيرون منّا. كنت كثيراً ما ألمح محمد ناجي بوجهه الهادئ ذي البشرة الداكنة المائلة للون القهوة المحروقة، ومشيته السريعة المستقيمة التي توحي لك إذا ما تأملتها بأنه يحجل ضاغطاً على إحدى قدميه، ربما لألم ما فيها، بينما يتجه مباشرة إلى مكتبه في وكالة أنباء الشرق الأوسط، وقد استغرقته عوالمه المختلفة التي نرى فيها ذلك الرجل الأبله وتلك المرأة التافهة. نعبر الميدان بهدوء متكاسلين متأملاً الهدوء النسبي لوسط البلد في ذلك الوقت المتأخر نسبياً من الليل. القليل من رواد المكان ذي الطابع التاريخي العتيق ما زالوا يرغبون في التسكع مثلما نفعل تماماً، على الرغم من البرودة القارصة للجو. أتأمل سنتر طلعت حرب التجاري على الرصيف المقابل لنا فأشعر بامتعاض شديد. كان معماره الحديث على الطراز الأوروبي وكأن يد قبيحة امتدت فجأة لتظهر في مكانها غير اللائق وسط هذا العبق التاريخي العتيق. عند سينما مترو اقتربت منّي لينا لتشتبك يدها المكتنزة الحريرية الملمس بيدي. ليديها ملمس شديد النعومة حتى لكأنك تلمس إحدى القطع الحريرية الملساء. لم أدر ماذا أفعل فتركت لها كفي الذي احتضنته كفها ذات الدربة الخاصة، لتضغطه بالقدر الكافي كي تستشعر الدفء فيه. كنا قد ابتعدنا عن البعلي بمسافة ليست هينة حينما أتته مكالمة على هاتفه المحمول فوقف لاستقبالها أمام حلواني العبد، ذلك المكان المتخم دائماً بمريديه من مدمني ما

يقدمه من حلوي. ننتبه على صوته. كنا كطفلين تـائهين فـي الملكوت السماوي الشاسع محاولين تلمس طريقهما فـي هـذه الأبدية اللانهائية. درنا حول نفسنا ونحن لا نكاد ندري شـيئاً. أتأمل اكسلسيور بزبائنه القلائل ليل نهار. هذا المكان يشـعرني دائماً براحة نفسية عميقة حينما أجلس فيه وحدي متأملاً. تقـع عيناي على إحدى الفاتنات جالسة خلف زجاجـه اللامـع فـي عزلتها الكائنة. أراها تتأمل دخان سـيجارتها المنسـاب مـن مقدمتها ليرتفع في دوائر تتلاشى في الفراغ المحيط، بينما كأس البيرة أمامها قد انتصف. تقع عيناها عليّ أثناء تأملها فتلوح في نظرتها دعوة مباشرة مقتحمة وقحة للمشاركة في تلك العزلـة. لي عزلتي الخاصة بي، فلم أشارك غيري في عزلتـه؟ كنـت كثيراً ما أزور هذا المكان حينما تسمح ظروفي المادية المتأزمة في معظم الأوقات. نجتاز الرصيف على ناصية شارع عـدلي، ذلك الشارع التاريخي العتيق بمعبده اليهودي الذي عفـا عليـه الدهر. بالتأكيد كان ذلك المعبد يموج بحيوات مختلفة متـواترة منذ أزمان بعيدة، هو الآن طي النسيان، لولا حراسة الشـرطة المشددة أمامه ليل نار. أراهم دائماً في وقفتهم هـذه، وكـأنهم وجدوا هكذا معه منذ بدأت فكرة وجوده في التخلق. كان الشارع بهدوئه النسبي الدائم يجذبني دائماً لتأمله، حتى لكأنه مدينة لهـا كيانها الخاص المنفصل عن كل ما يحيطها. كلما مـررت فيـه شعرته يوقف الزمن آنياً عند لحظة ما بعينها لست أدريها، حتى لكأن الوقت قد تجمد تماماً. أفيق من تأملاتي الدائمة على صوت

صرخة فرملة قوية انبعثت على إثرها صرخة حادة رائقة تشق الليل. كان مصدر الصرخة لينا ذات الحنجرة العذبـــة. أراهـــا تضع يدها على صدرها الذي يعلو ويهبط في حركات ســـريعة تدل على انزعاجها. تنطلق السيارة بعيدا مكتظة بمجموعة مـــن الشباب والفتيات بينما صوت ضحكاتهم المتعالية حتـــى ســـحب السماء الحبلى بالغيوم تتعالى صاخبة. ينطلق أحدهم معلقاً:

– أهذا وقت الحب؟ أظن أن الفراش سيكون أكثر رومانسية.

أنظر لعيني لينا متأملاً. رغم البرودة القارصة كانت يـــدها النائمة في كفي قد نضحت بالعرق، بينمـــا وجههـــا ذو اللـــون البرونزي الجميل الهادئ قد اكتسى حمرة ما تزينه قطرات من العرق. أو تكون خجلى من كلام ذلك التافه؟ أم أن وقع المفاجأة كان ذا تأثير فسيولوجي ما؟ التقت عينانا فابتسمنا، ظللنا واقفين في مكاننا برهة، بينما عينا لينا الواسعتان ذاتا التنـــاقض بـــين الأبيض والأسود قد حاصرتني تماماً، حتـــى إننـــي ظننـــت أن الكون استحال كله إلى تلك العينين الآسرتين. عبرنـــا الطريـــق متجهين إلى البعلي، لنعبر شارع عبد الخالق ثروت بمبانيه ذات الطراز المعماري العتيق، والتي لا تزال محافظة إلى حد بعيـــد على عبقها التاريخي القديم. أتأمل الكشك الكائن علـــى ناصـــية شارع الشواربي بأفلامه العديدة المتنوعة. تتوقف لينا بجـــانبي متأملة. علّها ترغب مشاركتي الوجدانية في عمق اللحظـــة، أو

أنها ترغب في اقتحام ما يدور داخل عقلي. أقول لها مشيراً إلى فيلم الدرجة الثالثة:

– هذا الفيلم يعد تحفة فنية على الرغم من قصته المؤلمة التي واجهها به الجمهور والنقاد متضامنين من أجل ظلمه.

ينساب إلى أذني صوت البعلي العميق:

– أترغب في شراء شئ ما؟

– لا... كنت أتأمل فقط.

نواصل سيرنا متجاورين ليتعالى صوت كلب قادماً من محطة البنزين المقابلة على الرصيف الآخر. تتزايد دقات قلبي بينما تضغط كفي على يد لينا النائمة بوداعة داخلها. لاحظتْ ارتباكي فنظرتْ إلى وجهي مستفسرة. أقول ساخراً من نفسي:

– نوع ما من الفوبيا الغريبة التي لازمتني منذ الصغر تجعلني أخاف من الكلاب، حتى إنني قد أتركك الآن مطلقاً لساقي العنان.

تنطلق منها ضحكتها المجلجلة الرائقة ذات الانسحاب الأخاذ في عمق الليل مما يزيده بهجة وألقاً. أتأمل المبنى العتيق الذي كانت جريدة الأهالي فيه قبل انتقالها إلى المقر المركزي لحزب التجمع. كنت كثيراً ما أصعد هذا المبني متجهاً نحو الجريدة لأدخل على حلمي سالم بمكتبه الكائن على يمين الداخل. يا الله... دائماً ما تمتد يد التغيير البغيضة للأماكن. عبرنا بجوار دار المعارف بكتبها الزاخرة بكل أنواع المعرفة. أسمع لينا تقول

فجأة للبعلي:

- أين ذلك البار اللعين الذي دعوتنا إليه.. أم مجرد وهم في خيالك؟

أسمعه يقول ببطء:

- لو كنت انتظرت عليّ قليلاً لما تفوهت بهذا الكلام السمج.. ها هو أمامك مباشرة.

ثم يعتدل ليقول بلهجة مسرحية:

- تقدموا أيها السادة لتدخلوا بأرجلكم اليمنى إلى بار الطبقات المقهورة Cup D'or.

أتأمل المكان من الخارج، على يسار الداخل تماما كشك سجائر يرابط صاحبه ذو الحزن اليومي الدائم داخله، يتقدمنا البعلي بما أنه المتردد الدائم على المكان، ألحظ ممراً ضيقاً إلى حد كبير قبل أن ندخل من بابه الثاني الداخلي، الممر زاخر بالعديد من الرواد، ندخل من بابه الثاني إلى بار متوسط إلى حد ما. كانت القاعة مزدحمة عن آخرها بروادها المختلفين، بينما البار في مواجهة الباب تماماً متصدراً المكان، يبدو أن البعلي كان ذو شعبية خاصة في المكان؛ فقد تتالت عليه الترحيبات من العديدين. أرى النادل يرحب به فيطلب منه إخلاء طاولة في إحدى الأركان المنزوية، لنكون في عزلتنا ذات العالم الخاص. تتقدم لينا متأرجحة في مشيتها، في مشيتها دعوة عامة للجميع كي يروا إبداع الخالق في جسدها. أرى عيون الجميع اتجهت إليها حتى لكأن أرواحهم سوف تخرج من حناجرهم الغاصة

بالنبيذ. تجلس على كرسيها بهدوء لأجلس قبالتها تماماً، بينما جلس البعلي بجواري متوسطاً إيانا. أقول هامساً بينما تعلو وجهي ابتسامة:

– حنانيك سيدتي...

تنظر لي مندهشة. في دهشتها تساؤل لا يفارقك حتى موتك، تراها في نظرتها الداهشة، وكأن عوالم عديدة زاخرة بالأحداث الصاخبة قد اندثرت كي تتشكل عوالم أخرى أكثر زهوة، وهكذا إلى مالا نهاية. كانت نظرتها المتسائلة تغني عن الكلام. أقول باسماً مأخوذاً بتلك العينين:

– ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.. مشيتك الراقصة المنسابة ذات الأثيرية الخاصة متضافرة مع جمال جسدك المترجرج في كل همسة تصدر عنك كادت أن تذهب بأرواح الجميع من حولك.

ألمح في عينيها ضوءاً ما يبرق كضوء البرق الخاطف، يتعالى حاجباها المرسومان بدقة شامخة. يا لتلك الخلاسية الفاتنة. إنها تعي جيداً ما لحضورها من سحر خاص، تقول بتعقل:

– أنتم هكذا معشر الرجال ليس في رؤوسكم سوي السيكس كي تفكرون فيه.. إذا لم أكن أعرفك من قبل، وسمعت حديثك هذا لما اختلفت عندي عن أي شخص آخر ممن يحيطونك هنا.

صدمني ردها الذي لم أكن أنتظره، ترى هل تحاول إهانتي تلك الخلاسية الجميلة؟ آخذ الكلام على محمله السيئ، وكأنها تتربص بي شراً؛ فأردت أن أرد إهانتها متظاهراً بأن حضورها الثري لا يمثل لي أي شئ على الإطلاق، إلا إن قدوم النادل ليسألنا عما نطلبه جعلني أحجم عما كنت أنتويه، طلب البعلي لنفسه بيرة، ووافقته لينا على طلبه، ففعلت مثلهم. أحول نظري بعيداً عن لينا محاولاً تأمل المكان. العديد من العمال ذوي المهن المختلفة يملئون المكان، يرتفع صوت أحدهم مقهقهاً في عالمه المنعزل عن الآخرين محدثاً جاره، بدا وكأنهما يتحدثان في أمور جنسية خاصة، أتأمل الجميع فأراهم مجموعة من الجزر المنعزلة التي يتميز كل عالم منها ببهائه الخاص، يأتي النادل بالعديد من أطباق الجزر وشرائح الطماطم والترمس، كانت الكميات التي أتي بها زاخرة وكأنها دعوة إلى وليمة، يضع زجاجات البيرة والأكواب الفارغة النظيفة جوارها، أتناول زجاجتي هامساً للبعلي:

– هذا المكان بالفعل لا بد سيتم تشويهه إذا ما زحفت جيوش المثقفين من أمثالنا عليه، وها نحن أول بوادر التشويه.

يقول متذمرا:

– لماذا تحاول فلسفة الأمور هكذا؟ أما آن الأوان للتخلي عن تلك الحالة المستعصية؟

أقول ممروراً:

– وإذا تخليت عنها، ماذا يبقى لي؟

أُلقي سؤالي، بينما أتجرع نصف زجاجة البيرة مباشرة جرعة واحدة، تتأملني لينا محاولة التأقلم مع سلوكي المتناقض، بينما يهبط كأسها من على شفتيها القرمزيتين متناولة باليد الأخرى إحدى قطع الجزر التي تقضمها، أتأمل كأسها الناصع المليئ حتى حافته بسائله الأصفر ذي الزبد الأبيض، بينما حافته شُوهت تماماً باللون الأحمر القرمزي، الذي يطلي شفتيها، أقول للبعلي هارباً من أثر تلك الشفتين:

– هل قرأت كتاب "نهاية الإنسان" الأخير لفوكوياما؟

ترد لينا بهدوء واثق:

– تقصد "نهاية التاريخ".

أستشيط غضباً. يا لتلك الخلاسية المتبجحة، أتزايد عليّ في معرفتي اللانهائية؟ أم أصابها الغرور بجسدها العارف لجميع فنون المعرفة حتى الباطنية منها؟ ولكن ما لهذا النشاط الجسدي بنشاطي العقلي؟ أقول محتداً:

– للأسف.. النقص عندك وليس عندي، صدر الكتاب منذ فترة بترجمة للدكتور أحمد مستجير.. حاولي أن تكوني أكثر متابعة ثقافية..

أُلقي كلامي الذي تساقط على المكان كالصخور العظيمة الهائلة، بينما يدي ترتفع بزجاجة البيرة التي أجرعها حتى آخرها. شعرت بمدي فجاجتي في الحديث معها عندما رأيت عينيها الجميلتين تنظران إلى اللا شيئ، أقول نادماً على إيذائها:

– آسف لم أكن أقصد.

أندهش لردها المتجاهل، فتقول:
– لمَ لا تحاول شرب البيرة بالكأس؟ أظن أنه سيكون أفضل.

يا لقدرتها على تجاهل الإهانة، وكأنها لم تكن موجهة لهـــا، نجحت في تفاديها ببراعة تحسد عليها. يقول البعلي بدهشة:
– الكثير من الأصدقاء يؤكدون لي أنني أشرب البيرة ســـريعاً، إلا إنني لم أرَ من هو أسرع منك في فعل ذلك.
– سيدي القدير.. تلك البيرة لا يتم تناولها إلا هكذا.
أُشير بيدي إلى أعلى بالزجاجة وكأنني أتجرعها قائلا:
– دفعة واحدة؛ كي تشعر بلذعتها.

أطلب من النادل زجاجة جديدة، يأتي بها إلا إننـــي مــا إن اتجهت بيدي نحوها حتى سحبتها لينا بكفها المكتنز الرقيـــق ذي الأصابع المدببة الرقيقة لتصب منها القليل في أحـــد الكئـــوس، قدمت لي الكأس برقة أنثوية عجيبة قائلة بهمس:
– هكذا أفضل.

أندهش للدور الذي تقوم به، أتمارس وصاية على سلوكي؟ ليس هناك علاقة خاصة تربطنا كي تقدم على ذلك الفعل، أحاول التغاضي عما تفعله حتى لا أزيد من حرجها، أتناول الكأس من يدها لتتلامس أصابعنا، رعدة خفيفة شملتني فلم أقوَ على مفارقة أطراف أصابعها، أشعر بعد فترة وجيزة وهي تسحبها ببطـــيء وكأنها خجلى، كان البعلي قد بدأ ينظر في ساعته عدة مـــرات، مما أوحى لي بأنه على وشك الانصراف، ما أن انتهـــى مـــن زجاجته حتى قال:
– هيا بنا..

أقول منزعجاً:

- إلي أين؟

- ألن تنصرفا؟

- لا.. سأبقي قليلا.

ينظر إلى لينا متسائلاً، إلا أنها قالت بعد فترة تفكير:

- سأبقي قليلاً.

ألقى علينا تحيته بلا مبالاة ثم أسرع بالخروج. أتأمل لينـــا، كنت مصمماً على محاصرتها بنظراتي مما جعلها تهرب بعينيها عدة مرات إلى التلفاز الكائن خلفي، أتأمـــل نهـــديها النـــافرين الراسخين اللذين يستقران على الطرف الآخر للطاولـــة، كانـــت ترتدي بلوزة شديدة الضيق، يكاد نهداها أن يمزقاها من فـــرط شعورهما بالعجز عن الانطلاق، أتأمل دورانهمـــا الرحـــب ذا الكيان الخاص متخيلاً ملمسهما الحريري عاريين فتنتابني رغبة تسيطر عليّ، أرى عينيها تراقباني فـــلا ينتـــابني أي شـــعور بالخجل، بل أواجهها بنظراتي ذات الرغبة الوليدة. تقول بهدوء:

- ألست معي أنك شديد الجرأة في نظرتك؟

أقول باسماً:

- معذرة.

تبتسم لتقول:

- رغم جرأة تلك النظرة المتأملة إلا أنها ليست جارحة، بل لقد شعرت وكأنها تهدهدني.

- لينا.. أنت بارعة الجمال.

– أعرف ذلك.. ولكن ألا ترى فيّ سوى جمالي؟
أقول صادقاً:
– بل أنا مبهور بعقليتك وثقافتك أيضاً.
– لو لم تقل ذلك لنفرت منك.. هل لا زلت غاضباً؟
– مم؟
– حين قلت لك أنه ليس في رأسك سوى السيكس.
– على الإطلاق.. لقد نسيت ذلك، ولكن بالفعل لك تأثير خاص في المكان.. كيف تريديني أن أرى ذلك الجمال ثم أنكره، ألست معي أني إذا تجاهلت ذلك أكون كاذباً منافقاً؟

تومئ برأسها موافقة بينما الموسيقى المميزة لموجز الأنباء ترتفع من التلفاز الكائن خلفي، أقوم لأجلس جوارها كي أرى الموجز، يتماس فخذها المجاور لي بفخذي فتستعر داخلي رغبة لا تريد أن تفارقني، أرتاح لملمسها فأترك فخذي ترتاح على فخذها، يلقي المذيع خبر التهديد الأمريكي للعراق بالحرب إذا لم تسلم كاشفة عن أسلحة الدمار الشامل، يا لذلك البوش المتعجرف البغيض، يبدو وكأنه امتلك العالم ليحركه كما يهوى، أو كما يحرك تماماً قطع الشطرنج. أسمعها تقول:
– هذه الأسلحة الضخمة التى يتم شحنها للخليج كافية كي تبيد منطقة الشرق الأوسط بأكملها وليس العراق وحده.
أقول ثائراً:
– ليذهب جميع الحكام العرب إلي الجحيم ومعهم شعوبهم.. لينا، العيب ليس في الآخر ولكنه فينا، نحن أمة يحكمها مجموعة

من اللصوص، يحاولون أن يبنوا مجدهم الخاص على حسابنا كشعوب.

كان وجهها ذو اللون البرونزي الجميل قد اكتسب حمرة داكنة من أثر البيرة، كانت قد تجرعت ثلاث زجاجات مما أكسبها بهاء مضاعفاً. أقول هامساً:

- ألن تنهضي؟

تتحرك فخذها النائمة تحت فخذي بدلال لتقول:

- هيا بنا.

تقولها بينما تنظر لي نظرة كثيراً ما تحيرت في تفسيرها، فيها الكثير من الإعجاب، والكثير من الرغبة، والقليل من العاطفة، ولكن كيف يكون ذلك ولقاؤنا عمره بضع ساعات قليلة؟ كنت أتأمل عينيها القريبة منّي فلم أدر إلا وشفتيها المكتنزتين ذات الانفراجة الداعية للعشق، وقد انطبعت على خدي الملتهب من أثر الحرارة، لم أدر ماذا أفعل فارتبكت، أسرع ناظرا حولي، كنت أخشى أن يكون أحدهم قد رآها، أجذب يدها المكتنزة لأخرج بها سريعاً، بينما ساقاي تكادان أن تتعثرا فتوقعاني أرضاً، نخرج إلى عرض الشارع ليتلقفنا برياحه الباردة التي تتكسر على جسدينا الساخنين، تلتف ذراعها حول خصري، فأحيط كتفها الدائرية الممتلئة دون إسراف. أقول غاضباً بينما صوتي تشوبه بعض الرغبة الحانية:

- هل جننت؟

- لم؟

تقولها مندهشـــة، وقــد اتســعت حـــدقتاها ذات اللـــونين المتناقضين.

– أتقبلينني داخل البار أمام هذا الجمع الغفير؟ لو رأوك لانقضوا عليك ناهشين إياك ظانين أنك إحدى الساقطات.

تنطلق ضحكتها الصافية ذات الانسحاب الأخـــاذ، فيتـــردد صداها في ليل وسط البلد، تقول وكأنها تحدث طفلها الصغير:

– صغيري، يبدو أنك لم تعرف وسط البلد جيدا.. هذا المكـــان الراسخ في عمق التاريخ له قوانينه الخاصة، التي تختلف عن أي بقعة من بقاع الأرض.. هنا تجد أشياء غير معقولة، وقد اكتسبت عقلانيتها، وأشياء أخري لاعقلانية ترتـــدي ثـــوب العقل، كيف تعشق مكاناً وأنت جاهل بقانونه الخاص؟

أسألها متحيراً:

– ألي أن أسألك إحدى أسئلتي الغبية؟

– لك ما تريد.

– لماذا أقدمت على تقبيلي هكذا؟

تقول متحيرة:

– لست أدري.. كل ما هنالك أني شعرت برغبة تملكتني تدفعني لذلك فلم أستطع عصيانها، وفعلت، أتدري أن هـــذه الرغبـــة أشعرها منذ كان البعلي جالساً معنا، إلا إني كنـــت أحـــاول كبحها، لكنها انفلتت منّي فجأة؟

أصمت شارداً. يا لتلك المكبوتات التي لا تنتهـــي، لســـت أدري لم قدر علينا كمجتمع أن نحيا في كـــل هـــذا الإرث مـــن المكبوتات، أتذكر البعلي بنظارته الغليظة ووجهه الثائر المكظوم

وقد احمر حتى كاد أن ينفجر، قليلاً ما كانت تنتابه مثـــل هـــذه الحالات، ولعلّي كنت الوحيد القادر على إيصاله إلى تلك الحالة من العصبية إذا ما تناقشنا سوياً. يقول:

– لم هذه السلبية في سلوكك؟ لست أدري كيف تكون بهذا القدر من الثقافة وفي ذات الوقت لا تهتم بما يدور حولك من فساد سياسي وإبادة للفلسطينيين، أليس لهذا الوطن عليك حق؟

أشعر بغصة قاتلة في حلقي تمنعني مـــن ازدراد أي شـــيئ حتى لعابي، يا لهذا الوغد الذي يحاول اخراج آلامي الخاصـــة التي أحاول دفنها في أعماقي المظلمة. أقول بعد فترة:

– بل لهذا الوطن كل الحق أيها الثائر، ولكن ماذا ســتفعل لـــه ولهؤلاء الفلسطينيين المستضعفين سوي الصـــراخ لتكـــون المحصلة النهائية لا شئ؟

يخيم علينا الصمت حتى لكأن الكون قد انهار تماماً. أقـــول بعد فترة زافراً بحرقة:

– لن تستطيع لا أنت ولا غيرك تغيير أي شئ على الإطـــلاق، إنها سياسات أخري يبدو أننا نعجز تماماً عن فهمها.

أفيق على صوت لينا الملائكي تقول بهمس:

– هل غضبت؟

أقول شاردا:

– لا.. على الإطلاق.

كنا قد خرجنا من شارع عبد الخالق ثروت متجهين ناحيـــة

ميدان الألفي، ذلك الميدان القديم المكتظ بملاهيه الليلية الصاخبة، ننحرف عند ناصية طلعت حرب في تقاطعه مع 26 يوليو المسمى قديماً بفؤاد باشا بجوار الأمريكين، أذكر الحادث الذي حدث لي هنا في بداية الليل، أذكر لها نظرة البائع الذي استراب في ظاناً أنني أحد سارقي الكتب فتضحك مجلجلة، أتأمل سينما ريفولي بما تعرضه من أفلام تدعوك للقيء، أقول لها بحزن شديد بدأ ينتابني:

– أتذكرين قولا للدكتور محمد عصفور يقول "عندما يصيب الفساد القمة فإنه ينحدر كالسيل جارفاً أمامه كل الارادات والقيم"؟
– أجل.. ولكن ما الداعي لهذا الآن؟
– إنه أكثر الأقوال تعبيراً عن هذا المجتمع البائس الذي نعيش فيه.

تصمت برهة لتسألني:

– لم تقل لي.. أين تسكن؟
– هنا في معروف.. في إحدى البنايات القديمة، إلا أنها ما زالت شامخة تقاوم التغيير.

تقول مسترسلة وكأنها لم تسألني قط، أو أنها لم تكن تنتظر منّي إجابة:

– لكنك لم تحك لي قصة التآمر التي ذكرتها عن فيلم الدرجة الثالثة.. ألن تفعل؟

اهتمامها بما أهتم به له أثر عظيم على ذاتي، أنظر إليها متأملاً شاعراً بشيء عظيم من الامتنان والاقتراب من

شخصيتها التي بدأت آلفها، حتى لكأنني أعرفها منذ قرون مضت. أقول:

- أتودين سماعها بالفعل؟

تقول صادقة مندفعة:

- بالتأكيد.

أنظر إلى ساعتي، كانت قد قاربت الرابعة، أقول لها متردداً:

- أتقبلين دعوتي على كأسين من النبيذ في منزلي المتواضع بينما أحكيها لك؟

كنت أخشى رفضها، إلا أن مشيتها ذات الإيقاع الخاص ظلت مسترسلة بينما ذراعها تحيط خصري، أنظر إليها متسائلاً، إلا أن وجهها كان مطرقاً نحو الأرض، وكأنها تبحث عن شيئ ما. عند ناصية 26 يوليو مع شارع رمسيس، ذلك الشارع الضارب بعمقه في التاريخ، والذي شأنه كشأن وسط البلد كلها امتدت له يد التغيير والتشويه حتى في اسمه، فتغير من شارع الملكة نازلي إلى شارع رمسيس، ننحرف يساراً باتجاه ميدان التحرير، كنا على بعد خطوات قليلة من منزلي العتيق، في الطابق السفلي تكمن العديد من السيارات المختلفة ذات الماركات الحديثة، كان قد استولى على ذلك الطابق أحد الرأسماليين ليحوله إلى معرض للسيارات، كثيراً ما كنت أتأزم حين رؤيتي لذلك المعرض بذوقه الفني الحديث ذي الطراز الأوروبي مشوهاً الجمال القديم للبناية، ندلف من الباب العالي العتيق الذي يفضي إلى ردهة واسعة يوجد على جانبيها سلم لولبي كبير ذو إطار

قديم من الخشب بدرجاته الخشبية المرتفعة، والتي تئن مصدرة أزيزاً مزعجاً تحت ثقل الصاعد عليها، كان السلم شـــديد القـــدم تلوح عليه تواريخ الأيام الغابرة، نصعد مستندين على بعضـــنا حيث الطابق الرابع، أتأمل لينا فإذا أنفاسها متلاحقة لاهثة لاهبة شديدة القرب من وجهي، أشرد في وجهها ذي اللون البرونـــزي المشرب بالحمرة الخفيفة، لم أقو على المقاومة، هل من بـــائس يستطيع مقاومة هذا الجمال؟ أقترب من شفتيها الممتلئتين ذاتـــا الانفراجة الداعية منذ القدم فأتناولهما بشفتيّ ممتصاً رحيقهمـــا العذب الذي لا بد سيشعرني بالارتواء بعد تعطشي الشديد لهما، يا لتلك المرأة البارعة، كانت كمن ينتظر تلك الالتفاتـــة منّـــي، فاندمجت الشفتان في حركة دائرية لانهائية لأشـــعرها تضـــغط على شفتيّ بأسنانها اللؤلؤية ضغطات خفيفة واهيـــة، دغدغـــة أسنانها على شفتي السفلى تزيدني التهاباً مما جعلني أكاد أفقـــد توازني، تشتد ضغطاتها الواهية حتى كادت أن تدمي تلك الشفاه التي تأكلها بنهم بين أسنانها، ينطلق لسانها العـــذب فـــي فمـــي كاليعسوب الصغير فتزيدني وهجاً، أضغطها في صدري لأشعر بليونة عجيبة تسري بين ذراعيّ. أليس لهذه المرأة من هيكـــل عظمي؟ وإذا كان لها فمن أين تأتيها تلك الانسيابية الفاتنة؟ لـــم أدر كم من القرون مرت علينا هكذا إلا بعد أن انفصلنا لاهثين، أنظر إليها متأملاً، فأرى عينيها ناعستين نائمتين في عالمهمـــا الخاص ذي الألوان البنفسجية الحمـــراء اللازورديـــة، أتكـــون روحها الآن في رحلة من تلك الرحلات التي تترك فيها الجســـد كي تجول كيفما اتفق لها بعيداً عن الثقل المادي للجسد؟ كانـــت

الرغبة المفعمة قد زادت حسنها فتنة فلم أقو كثيراً على النظـــر إليها، أفتح باب شقتي العتيقة لندلفها بينما رائحة عتيقـــة تهـــب علينا من داخلها، يا لتلك الرائحة التي لا تكاد تفارقهـــا، كانـــت خليطاً من رائحة الكتب القديمة وأنواع النبيذ المختلفة المختلطة برائحة الموتى، ولكن أيسكن معي بعض الموتى، أم أنا الـــذي كنت قد تحولت إلى جثة منذ زمن بعيد حينما فضـــلت عزلتـــي الدائمة عن كافة الخلق معتقداً في ذلك أنني بهذا السلوك ســـوف أبتعد عن وباء جهلهم المستميت، كنت دائماً ما أخشى أن أُصاب بجهالة إذا توحدت مع الآخرين ففضلت ما أنا عليه من العزلة، أأكون مريضاً نفسياً كما سبق أن اتهمني البعلي منذ ســـاعات؟ أتجه نحو الثلاجة لأخرج زجاجة نبيذ، أترك لينا تتأمل الشـــقة العتيقة ذات الأرضية الخشبية كما يحلو لها، لم أدر إلا بنسيمها الأخاذ يجاورني بينما عيناها تنظران لي في رحلـــة أبديـــة لا تنتهي من الرغبة العاتية، ترتعش كفـــي الممســـكة بالزجاجـــة فينسكب القليل منه على الأرض بدلاً مـــن الانســـكاب داخـــل الكأس. تقول منزعجة:

– ماذا دهاك؟

– لا شئ.

تتناول الزجاجة من يدي لتقوم بصبها داخل كأســـين بينمـــا أتجه إلى أحد المقاعد العتيقة داخل الردهة لأنظفها مما علق بها من تراب كثيف، منذ زمن بعيد لم أجلس في تلك الردهة، ربما لأنه لم يكن أحد ما يزورني، كانت جلستي الدائمة في مكتبتـــي الخاصة، تلك الغرفة التي تحفظني وأحفظهـــا لطـــول عهـــدنا

ببعض، أنتبه على صوتها قادمة لتقول لي بينمـــا يـــدها تمتــد بالكأس:

– أتعرف محمد البعلي منذ زمن بعيد؟

أشرد في عوالم بعيدة عنها، أيام الصبوة والانطلاق، كانت أيام ما زلنا نتشكل فيها سياسياً وثقافياً، أراه بوجهه القديم وكأني أعرفه منذ الأزل، كنت قد قلت له نكتة قبيحة من تلك النكـــات التي أحب قولها دائماً، ثم سببته بكلمات وقحة، يقول متعجباً:

– لست أدري كيف يحلو لك قول مثل هذا الكلام القبيح تشـــبهاً بالآخرين من العوام، ألا تخجل من ثقافتك التي تشوهها بمثل هذا السلوك؟

أقول مداعباً:

– دعك من هذه الجهامة والجدية الزائدة، التي تحاول التحلي بها دائما.. لا تكن كهؤلاء المتأسلمين الذين لا يعرفـــون كيـــف يمارسون فن الحياة والنهل منهـــا، وإلا ستصـــيبك جميـــع الأمراض النفسية المستعصية.

يعرض عن قولي قائلاً:

– أعتقد أنك في حاجة لمراجعة سلوكك.

بحزن بدأ ينتابني:

– صدقني، لولا هذا السلوك العجيب الذي أسلكه لانفجرت غيظاً من كل ما يحيطنا.

أزفر محدثاً ذاتي، ما لتلك الفاتنة تنبش في الماضي البعيد؟ أقول بعد فترة جالت فيها عيناي على كنوز جسدها متأملة:

– البعلي صديق منذ أيام الدراسة الجامعية، ولعله الوحيد الـــذي ما زلت محافظاً على صداقته حتى الآن.

تقول وقد ارتشفت رشفة طويلة من كأسها:

- لست أدري، في أحيان كثيرة لا أرتاح لطريقته اللامبالية في الحديث، فأرغب في تحطيم رأسه بأي شيئ أمامي.

كنت قد ارتشفت بعض النبيذ فلم أستطع ابتلاعه حينما سمعت قولها، أضحك مقهقهاً لأقول من بين ضحكاتي المتتالية محاولاً تنظيف ملابسي من النبيذ المنسكب عليها:

- لو فعلت لما تحرك قيد أنملة، أيتها المفتونة بجمالك .. أتريدين من الجميع الافتتان بذلك الجمال فيقدمون لك فروض الولاء والطاعة؟ أشعر أحياناً أنك ترغبين دائماً في النظرات الولهة المخلصة من عيون جميع الرجال المحيطين بك.. أأنا مخطئ في ذلك؟

تقول شامخة:

- أتراه نوعاً من العيب أن أشعر بمدى ساحرية جمالي وتأثيره على الآخرين؟
- ليس في هذا ما يعيبك، ولكن الحقيقة التي لا بد أن تدركيها جيداً هي أن ذلك الجمال ذا الأثيرية الخاصة في حاجة إلى من يستطيعون تقدير الجمال وتذوقه.. إنه في حاجة إلى هؤلاء ذوي الدربة الخاصة على الإحساس بالجمال، حتى وإن كان وسط غابة من القبح، أما هؤلاء الذين يحيطونك في هذا المجتمع القبيح فقد اكتسبوا تلك السمة من مجتمعهم، وصاروا قبيحي الأرواح تماماً كمجتمعهم، فكيف تجيئين بعد ذلك كي تطلبي منهم تذوق الجمال، حتى ولو كان باهراً

يستطيع الكفيف رؤيته وتذوقه قبل المبصر؟ انظري في فلسفة الجمال كي تدركي جيداً أن الجمال منبعه الداخل وليس الخارجي القابل للتغيير والتشويه، لا بد أن تكون ذاتك ذات جمال خاص أولاً كي تستطيعي إدراك ما هو خارجها من جمال، أما هؤلاء الذين لا يستطيعون فعل ذلك فقد تم تشويه دواخلهم منذ زمن، وليس هناك أمل من أجل تجميلهم.

كانت تستمع إليّ متأملة، في نظرتها تلك البسمة الجميلة الصافية التي تدعوك دائما للارتماء في أحضانها متناسياً العالم وما يدور فيه من قبح قديم، اكتسب وجهها البرونزي حمرة داكنة حتى لكأنها على وشك الانصهار بالرغم من برودة الجو، أراها تترك كأسها لتتخلص من بلوزتها ذات الياقة المرتفعة المحيطة بعنقها الجميل، كانت شديدة الضيق ترسم كل ثنية من ثنيات جسدها فخُيل إليّ أنني أستمع إلى حفيف ما ينطلق من جسدها الذي تحرر من سجن تلك البلوزة الصارمة الضيقة، تجلس ببنطالها الشديد الضيق بينما نصفها العلوي لا يستره سوي سوتيانها الضيق، الذي يقيد حركة نهديها الشامخين، ألمح عرقاً خفيفاً ينسدل بين النهر الجاري المتوسط لنهديها فيكسب منظرها فتنة، أتأملها في سوتيانها الصغير الذي يكشف من نهديها أكثر مما يستر فأدخل في دوامات غريبة من الشطح اللانهائية. تقول لي بجرأة غير معهودة بينما كفها المكتنز يمتد إليّ داعياً:

– إذن هل تستطيع الشعور بمثل هذا الجمال؟

لم أستطع تحويل عينّي الذاهلتين عن جسدها الخلاسي، هل هي في حالة اختبار دائمة لي تلك الفاتنة؟ أم أنه تـأثير الخمـر الذي سرى في جسدينا يعطي الأشياء بعداً آخر غير ذلك الـذي يراه الآخرون؟ أنهض من مكاني متطايراً غير شاعر بما أفعله من أثر الخمر القوي الذي أشعر له دبيباً كدبيب الرغبة السارية مع دمي متمهلة مذعنة. أرتمي جوارها بينما ذراعهـا البضـة تحيطني ضامة إياي إلى صدرها، تستريح رأسي على نهـديها راسخة فأستمع إلى دقات قلبها المنتظمة الهادئة تأتي من العمق مصحوبة بطنين ذي رجع أخاذ، تتحسس يدي ظهرها بنعومـة حانية لتفك مشابك سوتيانها الضيق، الذي تسمع لصوته انفجاراً قوياً حينما يحرر أسر النهدين المختنقين. أتأملهما مدققاً في ذلك الحز المنغرس عند أطرافهما من جراء اختناقهمـا بالسـوتيان الضيق، أقول في سريرتي، كيف لهذا الجمال المنطلق أن يكبح جماله هكذا؟ أقول هامساً:

– كيف تعذبين هذين الطائرين المنطلقين بهذه الأسوار القاسية؟ أعتقد أنهما بلا سوتيان أفضل.

تضمني إليها فـأغمس وجهـي الغـارق فـي شـموخهما المستميت، أتناول حلمتها النافرة بشفتيّ لأمتصها حتى المـوات الأخير واستكانة الجسد التي لا يأتي بعدها سوى العـدم، ريـح هائلة شديدة السخونة محملة برذاذ الخمر ذي الرائحـة العتيقـة تنطلق من فمها حينما أكز على حلمتها بحنو، فيها الكثير مـن الفحيح اللاهث، الكثير من الرغبة اللاهبة، لم أدر كيف تخلصنا

من عبء ملابسنا إلا حينما انتبهت على احتكاك اللحم ذي المذاق الخاص، أراها نائمة بجسدها ذي اللمعة البرونزية الخاصة، نهدان يرفضان الاستكانة الدائمة فتراهما أبدا نافرين مدججين وكأنهما خلقا هكذا غير قابلان للتفاوض أو الاستسلام، لهما شموخ عجيب فتراهما واقفين راسخين رسوخ جبال الأرض جميعا، ينزلق بطنها الهضيم الراسخ متوسطاً إياه عمق لا نهائي يتغذى منه ذلك الجسد في الأزمنة البعيدة من خلال مشيمة خاصة بها وحدها، يتلوه قبة سماوية عالية ذات بعد خاص في أرجاء المكان لتنزلق على اللاشئ محلاة بزغب كثيف من أدغال شعر عانتها الذي يصنع لها لوحة وحشية شديدة القسوة والجرأة، أتأمل ساقيها الملفوفتين وأتساءل، هل هذا الذي نحن فيه من فرط الخمر أم أنها الرغبة التي ولدنا بها منذ الأزل تحركنا مسيطرة على تفكيرنا؟ أرى في جمالها النائم لوحة عجيبة من الجمال تكاتف من أجل صنعها جميع فناني الأرض قاطبة فخرجت من تحت أيديهم كأبهى ما يكون، أويكون الله قد تفنن في تشكيلها وحدها متجاهلاً في ذلك كل ما هو جميل في هذا الكون من أجلها؟ أنظر لعينيها النائمتين اللواتي تدعواني للاندماج الآني الذي لا ينتهي إلا إذا تلاشى العالم وتحول إلى لا شيئ. أقبّل كل جزء من جسدها هائماً فيها. مثل هذا الجسد لا يُضاجع، بل يُوضع هكذا في أرقى معارض الأرض للفنون التشكيلية ليكون لوحة حية حقيقية تعرض الإبداع في خلق الجمال، لم أقو على السيطرة على مشاعري فأخذتها

عنوة مضاجعاً إياها بينما أذني لا تستمع إلا لصوت تأوهاتهـــا المنتشية الجميلة التي تنطلق في عمق الليل الذي قـــارب علـــى الانتهاء كي تصعد مع الأثير نحو السماء العالية التي لا بد أنها تشاركنا زفافنا الأسطوري الآن، يخيل إليّ أن هنـــاك عـــدداً لا نهائي من الملائكة المحتفلة بحبنا الجسدي ذي الألق، والحميمية الخاصة يدورون حولنا مباركين إيانا فـــأغوص فـــي عوالمهـــا اللازوردية اللانهائية منتشياً.

شطحات لحظية

كنت قد استمعت إلى نصيحة لينا، تلـك المـرأة الواعـدة بدهشات متتالية مختلفة، فاتجهت على اثـر انتهـاء محادثتنـا التليفونية إلى الحمّام علّ الماء البارد يستطيع أن يطفئ شيئاً من غلمتي التي استعرت داخلي عند سماعي تلك المتأودة، أتـذكر أحد حواراتي التي غاصت منذ زمن في بحر الذاكرة، فأبتسم:

– إنك تحيرني كثيراً معك.

أقول مندهشاً:

– لماذا؟

– شخص في علمك وثقافتك، بل ودرايتك التامة بكل مستحدثات الأمور، من أين يتأتى له الوقت لفعل كل هـذا، بالإضـافة للكتابة الدائمة للعديد من المشاريع الفكرية والسينمائية رغـم غلمته الجنسية المستعرة فيه منذ الأبد حتى إنه على استعداد تام لممارسة الحب ليل نهار؟

كنا قد انتهينا لتونا من إحدى رحلات الجسـد ذات العـبء المادي لتنطلق روحانا الخفيفتان إلى عوالمها الأثيرية المختلفة، كان جسدانا في حالة أوج شامخة بذلك العري القدسي الذي ولدنا به منذ بداية الخليقة، راحة قصوى كانت تنتابنا حينما كنا نتخلى من عبء ملابسنا ذات الطابع المدني النفاقي، كم هو جميـل أن يبقي الإنسان هكذا مجرداً من كل شئ في حالة نكـوص إلـى

جماله الوحشي الأول، أهبط من فراشنا بينما جسدي يلمع بقطرات العرق، أتناول كأسانا لأناولها واحداً، أرشف من كأسي شارداً لأقول لها:

- أذكر أن أحدهم قال إنه في حالات الانكسار القومي والحروب الطويلة يلجأ الإنسان إلى التغلب على تلك الحالة بالانغماس في ممارسة الجنس، والإحصائيات التي تجرى في مثل هذه الأوقات تدل على أن أعداد المواليد تتزايد بأشكال كبيرة في هذه المراحل البغيضة من عمر الإنسان.

كنت واقفاً خلف زجاج النافذة متأملاً السماء الحبلى بالنجوم الناصعة، أرى إحداها تنبض بألق أخاذ ثم لا تلبث أن تنطفئ مظلمة، أتشاركني حالتي الوجدانية المنكسرة، أم أنها مجرد خيالات صورها لي عقلي؟ أشعر بحفيف جسدها يمزق الهواء المحيط حينما تقترب من ظهري ملتصقة بي من الخلف، نهداها الملتصقان بظهري لهما ملمس لذيذ حينما تحيطني بذراعيها مطوقة إياي فتضغطني ضغطات متوالية، أشعر بها تقبلني في عنقي فتدغدغني قائلة:

- لماذا تعاني من الانكسار حبيبي؟ ألست معك دائماً؟

أقول وكأنني لم أسمعها:

- لو كان قد أسعدك الحظ برؤية إنسان مكتئب غيري لكنت قد لاحظتِ أنه ما من سبيل له للخروج من اكتئابه المزمن إلا بطريقتين.. إما الإغراق في الجنس، أو الإغراق في الأكل بشراهة حتى يصبح كالبالون المنتفخ من فرط الطعام،

والعجيب أنه لا يلبث أن يقيئ كل ما تناوله من طعام ليعود لذات الفعل مرة أخرى، وهكذا في دائـــرة مفرغـــة لا تكـــاد تنتهي حتى تبدأ من جديد.

تقول شاردة:

- إنك تذكرني بحديثك هذا بالأميرة ديانا؛ حيث كانت تفعل مـــا تقوله بالضبط، أذكر أنني رأيت لها إحدى الصور على شبكة الإنترنت بعدما تناولت كميات هائلة من الطعام.

أراها وقد ارتسمت على وجهها علامات الاشمئزاز لتقول:

- لا يمكنك أن تتخيل هذه الرقيقة وقد انتفخـــت تمامـــاً حتـــى صارت كالبالون، لقد كان شكلها بشعاً، غاية في البشاعة.

أضحك فجأة ضحكة عالية ممـــا أثـــار اســـتياءها، تقـــول غاضبة:

- علام تضحك أيها البارد؟ أعلى كلامي أم على منظر الأميرة الرقيقة التي أتحدث عنها؟ أقلت لك نكتة؟

أقول معتذراً:

- إنني أضحك على نفسي، لقد تذكرت أحد الأصـــدقاء، كـــان كثيرا ما يتساءل عن السبب الغامض فـــي عشـــقي الشـــديد للجنس، كان يقول لي دائماً إنني مصاب بحالة هـــوس مـــا تجعلني كائناً جنسياً، ثم كان يتساءل هل هذا يعود إلى عيوب في أسلوب التربية والتنشئة الأولى، أم أن حادثاً ما وقع لـــي في الصغر فجعلني مصاباً بأزمة لا أدري حقيقتهـــا، ولكـــن عقلي الباطن يلح عليّ دائما في اتجاه الجنس.

تقول متسائلة:

- أأعرفه هذا الصديق؟

ساخراً:

- وهل لي غير البعلي من صديق آخر؟

أفيق من رحلتي الماضية لسبر أغوار الماضي السحيق، كانت المياه قد ازدادت برودتها حتى ظننت جسدي قد تيبس متجمداً، أخرج من حمامي وقد بدأت أشعر بشيء من الانتعاش، تلك الخلاسية ذات الكفين المكتنزتين تعرف جيداً علاج أية حالة تنتابني، أتأمل علاقتي معها، أأنا مرتبط بها فعلاً من أجل الجنس فقط أم إعجاباً بثقافتها التي لم أكن أنتظرها من فتاة مثلها؟ أعرف أن عزلتي الطويلة التي دخلتها منذ زمن ليس بالقصير قد أعجزتني عن التواصل الاجتماعي مع الآخرين، ولكنها ذات رونق مختلف، كنت أظنها مجرد مترجمة لا تفقه الكثير من الأمور الثقافية الأخرى، فوجئت بمستوي أعمالها الإبداعية التي تكتبها على فترات متباعدة، كانت تمتلك أسلوباً ساحراً في الكتابة يأخذك بعيداً إلى عوالمها الخاصة، اندهشت لثقافتها السينمائية التي حاولت أن تسترها عنّي منذ لقائنا الأول، يومها فسرت ذلك بالخبث الثقافي الحاد، حينما بدأت أحكي لها حكاية الظلم النقدي الذي قوبل به فيلم "الدرجة الثالثة" اندهشتُ كثيراً حين قالت:

- العيب ليس في شريف عرفة كمخرج وماهر عواد كسيناريست؛ فهما يتميزان بالذكاء الفني، ولكن العيب

الأساسي يقع على عاتق النقاد الذين لم يرغبوا في فهم مغزى الفيلم، أو قل أنهم تغابوا عن محاولة فهمه.
أقول مندهشاً:
– معنى كلامك هذا أن كلام شريف عرفة بـأن النقـاد كـانوا يحملون قدرا لا بأس به من الغل تجاهه كان صـحيحاً ممـا يخرجه من دائرة الإصابة بعقدة الاضطهاد.
– يبدو أنك أنت المصاب بالعديد من العقد النفسية الخطيرة.. أية عقدة هذه المصاب بها شريف عرفة؟ أظن أنه لو كان كذلك لما استطاع الاستمرار والمثابرة الطويلة بعد هذا الفيلم.
أتأملها مندهشاً لأقول:
– لكن لم طلبتِ منّي رواية تلك الحكاية لك يوم تعارفنا رغـم معرفتك الواعية بها؟ أكنت تحاولين السخرية منّي، أم أنـكِ تمارسين نوعاً من الخبث عليّ؟
تنطلق ضحكتها المجلجلة الصافية ذات الانسحاب البطيء الأخاذ في نهايته. تقول بخجل نادر:
– أتذكر تلك السيارة التي كادت أن تصدمنا على ناصية شارع عدلي؟
– بلى..
– يومها أطلق أحد الشباب داخلها سباباً ثم قال ليس هذا وقـت الحب.. أعتقد أن الفراش سيكون أفضل.
– أذكر ذلك.. لقد تخوفت وقتها أن يكون قد أزعجك بقوله.
– لقد شعرت بالانزعاج فعلا، ولكن انجذابي إليكِ ليلتهـا كـان يشعل في جسدي رغبة عجيبة مستعرة تدفعني إليك، أذكر أن

نظراتك منذ وقعت على عينيك كانت تتأملني بهدوء وكأنها نظرات متصوف يتأمل إبداع خالقه.

تصمت فترة ثم تقول مستدركة:

– أتدري؟ لولا تلك النظرة المتصوفة الخاصة التي كانت تلوح في عينيك لنفرت منك منذ اللحظة الأولى، إلا إنها كانت السبب الأساسي في انجذابي نحوك.

– لست أفهمك.

– سأقول لك يا طفلي العزيز.. إن الأنثى منا تشعر بأنواع النظرات الموجهة اليها، فتلك شبقة، وهذه جارحة تريد أن تنهش الجسد، وأخرى متأملة متعبدة ذات إحساس صوفي بالجمال، ولعل الأخيرة هي أكثر النظرات نفاذاً إلى قلب المرأة منا، ليس إرضاء لغرورها، ولكن لأنها من أكثر النظرات ندرة.

– أيتها الماكرة، إذن كنتِ تستدرجينني حتى نصل إلى منزلي.

تقول وقد اكتسبت عيناها نوعاً غامضاً من الألق:

– لا تلق الأحكام جزافاً، فأنت أيضاً كنت تلعب ذات اللعبة، إلا أني شعرت ليلتها بانجذاب عجيب نحوك لست أدري مصدره، فساعدتك على إتمام ما تبغيه.

أنتبه على صوت باب الشقة يغلق، أتجه بعينيّ الشاردتين نحوه فأرى في تلك الخلاسية الفاتنة، يا لبهائها، تسرع نحوي فأريح رأسي الرازح بالأفكار على صدرها، راحة عميقة تشملني حينما أنسى الجو المحيط تماماً بينما رأسي تتوسد نهديها بعالمهما الأثير المنفصل عن الواقع، تقول مهدهدة إياي بينما

أصابعها المدببة ذات الانسحاب الأخاذ تعبث بفروة رأسي وكأنني وليدها الصغير:

– ماذا هناك؟ أزعجتني.

أقول وقد انتبهت لابتلال ملابسها:

– انك مبتلة، أهي تمطر؟

– بلى..

أنزعج قائلاً:

– ستصابين بالبرد هكذا... غيري ملابسك أولاً.

تقول مطمئنة:

– كأسان من النبيذ يجعلاني أشتعل حرارة.

أراها وقد تناولت كأسها لتجرعه جرعة واحدة بينما يدها تنضو عنها ملابسها الشديدة الضيق التي تخنق جسدها الراغب أبداً في الانطلاق الحر، أراها في عريها البرونزي لوحة مكتملة يعجز البشر أجمعين في تشكيلها، تلحظ نظراتي المتعبدة في جسدها فتقول بغنج مثير:

– يا لتلك النظرات الآسرة... please لا تنظر لي هكذا.

تتناول المنشفة مجففة جسدها لتلتف بها عاقصة شعرها للخلف. تقول بعد أن استراحت جواري بينما يدها المكتنزة ذات الأظافر الوردية تمسك بكأسها:

– ماذا هناك؟

أقول شارداً:

– هل تذكرين "ماريا كلارا"؟

- أتقصد تلك المرأة زوجة المعلم "مانويل" التي تحدث عنها جورج أمادو في رواية بحر ميت؟
- هذا تماماً ما أقصده.
- بلى.. ولكن ما الذي ذكرك بها الآن؟
- أتذكرين حينما كانت "ليفيا" زوجة "جوما" ذلك الشبيه بأحد أبطال الملاحم الإغريقية تنتظر عودته من البحر وسط العاصفة، وقد أخذ بها الوهم أن زوجها لن يعود مرة أخرى، بينما صوت "ماريا كلارا" ذو التأوهات الجنسية الحادة يصل إلى مسامع ليفيا محمولاً مع الريح كي يملأ الميناء بأكمله بسحر ذلك الحب المقاوم للموت، الذي يظهر وجهه القبيح مع تلك العاصفة الهوجاء التي هبت؟

تقول ضائقة:

- كل ذلك أذكره، ولكن الذي أدركه الآن أنك تهذي.

أضحك قائلاً:

- لست أهذي عزيزتي، انه ذات الصوت المتأوه ذو الشبق الجنسي المستمتع بممارسة الحب لماريا كلارا هو الذي أيقظني من غفوتي الليلية، ولكن بشكل أكثر حدة وشهوة.

منزعجة:

- أأنت تهذي بالفعل أم أنك كنت تحلم؟
- لا هذا ولا ذاك، يبدو أنها إحدى الزوجات، أو إحدى تلك العاهرات التي أتى بها أحد جيراني.. لقد كان صوتها واضحاً جلياً وكأنها معي في الغرفة تماماً، كان صوت تأوهاتها المثيرة ذات اللحن الجنسي الجميل يشنف أذنيّ بادئاً

ضعيفاً واهناً، ثم لا يلبث أن يصير حاداً صارخاً.. سمعتها تقول لرجلها قبل الصرخة الأخيرة ذات الرحلة الجميلة الأبدية كفاك مضاجعة، لقد أذهلتني.

تقول لينا مندهشة:

– أذهلها؟ ولكن كيف أذهلها؟

– لست أدري، لقد تحيرت فيما قالته كثيراً، حتى إنني أمضيت الكثير من الوقت لتفسير قولها.

أقول موجهاً لها حديثي:

– أويكون الرجل قد ضاجعها فترة لم تعهدها منه من قبل؟

– دعك منهما، لكل منا عالم يغنيه، ولكن أهاتفتني من أجل ذلك أيها الشره برغباتك؟

– بغض النظر عن الرغبة التي انتابتني وقتها إلا إنني شعرت بحاجة ماسة إليك كي أتخلص من ذلك الشعور الشديد بالخواء الذي انتابني، مجرد وجودك المادي في الحدود المادية للمكان يجعلني أتناسى العالم بمن فيه.

تبتسم ضامة إياي إلى جسدها، تقول هامسة:

– أين كنت البارحة؟

– متى؟

– مساء، هاتفتك كثيراً ولم أجدك.

أقول بلا مبالاة:

– كنت أتسكع.

– كانت هناك إحدى الندوات الثقافية التي هي في حاجة إليك، كنت أتمنى حضورك معي.

أقول ضجراً:

- لقد هجرت هذه التفاهات منذ زمن بعيد، هؤلاء الذين يحرصون عليها ليسوا مثقفين كما قد يتراءى لك، إنهم مجرد قشور ثقافية يرغبون في الظهور على السطح الآسن لثقافتنا الراكدة الضحلة.

غاضبة:

- لا تلق أحكامك جزافاً هكذا.

بهدوء:

- إنها ليست أحكاماً جزافية عزيزتي، ولكنها الحقيقة المرة، جميع هؤلاء يعلمون جيداً أن ثقافتنا العربية مجرد ظاهرة نفسية نحاول بها تعويض ما يشوب نفوسنا المريضة المتضائلة أمام الزحف العولمي الجديد.

لم ترد عليّ، فلم أنتظر منها إجابة قائلاً:

- انظري إليهم ستجدينهم يحلو لهم لوك الكلمات المنتقاة ثم يتشاجرون متهمين بعضهم بما يدور في دواخلهم من اتهامات العمالة وبيع القضية وما إلى ذلك من ترهات، وأن هذا له باع وتاريخ في كذا وكذا، وأنه فعل كذا وكذا، وكم ناضل، وكم فعل، ثم تكون المحصلة النهائية لمثل هذه اللقاءات ذهاب كل واحد منهم إلى امرأته ليتدثر في أحضانها الدافئة الواهية، وإذا لم تكن له زوجة سيتجه إلى ابتلاع كذبه وتدليسه الزائف الذي قام به منذ ساعات بأحد أفلام البورنو التي يعشقها مجتمعنا العربي، الذي يوشك على الانفجار، ثم ينام قرير العين بعد أن يمارس عادته السرية اللعينة التي يهرق فيها ماءه على الأرض هباء، أية ثقافة تلك؟

تقول وقد أزعجها حديثي:

- وإذا لم يكن قد حدث شيئ من هذا أيها المريض المتعالي؟ لقد ألقي علينا الدكتور حامد طاهر إحدى قصائده الجميلة تلك المسماة "أخيرا تحدثت الأحجار"، وما أن فعل حتى انهال سيل جارف من القصائد الراثية للقضية الفلسطينية.

أقول ساخراً:

- وتنعتيني أنا بالمرض والتعالي؟ يبدو أن الجميع من حولنا قد صاروا بالفعل مرضى.. أية قضية تلك التي توهمون أنفسكم بها؟ إن القضية الحقيقية أنه لم تعد هناك قضية أصلاً، لست أدري إلى متى سنظل نقوم بتلك الحالة الكئيبة من التباكي والشجب والرفض والإدانة وما إلى ذلك من تلك الكلمات المفرغة الحمقاء.

أصمت لأشرد بعيداً، وقد تذكرت البعلي، كان قد اشترك مع العديد من الزملاء للإعداد في مظاهرة سلمية بعد الاعتداءات الوحشية التي يمارسها العدو الصهيوني تجاه الفلسطينيين، يومها كنا في حرم الجامعة صباحاً، رأيته قادماً نحوي حاملاً إحدى اللافتات التي تطالب بطرد السفير الإسرائيلي وغلق السفارة الإسرائيلية. يقول:

- ألن تأتي معنا؟
- أين؟
- سنقوم بمظاهرتنا السلمية حتى كوبري الجامعة، وهناك أمام السفارة الإسرائيلية سنقوم بحرق العلم الإسرائيلي.

أقول ساخراً:

- وهل تعتقد أن حرس الجامعة سيسمحون لكم باجتياز بواباتها إلى الخارج؟

حانقاً:

- لا بد أن نفعل، حتى ولو وصل الأمر للاعتداء عليهم كي يسمحوا لنا بالخروج.

يائساً:

- أتحدث مجنوناً لا يفقه معنى كلامك؟ قوات الأمن المركزي منذ الصباح تحيطنا وقد حولت الجيزة بأكملها إلى ثكنة عسكرية بعساكرها وعرباتها المصفحة، بل منعت مرور أية سيارة من المنطقة، وما أن تبدأوا إلا وستجدون وابلاً من القنابل المسيلة للدموع والطلقات المطاطية تنهال عليكم، هذا إذا لم يستخدموا الطلقات الحية لإبادتكم تماماً كما يفعل الصهاينة بالفلسطينيين.

أراه وقد انتفض صارخاً:

- أنت جبان خائن للقضية.

غاضباً:

- لا تتهمني بالجبن والخيانة، أنظر حولك بشيء من التأمل وستجد أن ما نفعله جميعاً لا طائل من ورائه على الإطلاق، حتى ولو قامت المظاهرات في جميع بلدان العالم فلن يغير ذلك من الأمر شيئاً، إسرائيل تساندها أمريكا، والحكومات العربية إما صديقة أو ذليلة لأمريكا، فماذا سنفعل جميعاً؟ نظل نصرخ لنقول لهم إننا ما زلنا أحياء؟ هم يعرفون ذلك.

- معني كلامك هذا أنك لن تأتي؟
- صدقني، أنا أقدّر فيكم ما تفعلونه وأحترمه كثيراً، بل وأتمنى أن أشارككم فيه، ولكني واثق تماماً أنه لا فائدة مما يحدث.

أفيق من ذكرياتي القاتمة على كلام لينا قائلة:

- إنك تتحدث وكأنك لست منا.

أقول زافراً:

- للأسف الشديد أنا أنتمي إلى مثل هـذه المنطقـة المريضـة المتشرذمة على ذاتها ظانة في نفسها القوة والمجد رغم أنها لا تعدو أكثر من مجرد هباء تذروه الريح كيفما اتفق، ولكن الفرق بيني وبين الآخرين أنني قد ارتفعت كثيراً من داخـل تلك الدائرة المفرغة، فاستطعت أن أرى الدائرة المغلقة بشكل أكثر رؤية ووضوحا.
- أتتهمنا بالجهل؟
- لست أتهمكم بالجهل بالرغم من تأصله فيكم، ولكني أتهمكـم بالسبات العميق في مجموعة من الأوهام صنعتموها بخيالكم، ثم لم يلبث ذلك الخيال المريض أن صورها لكم على أنهـا حقيقة واقعة، فانسقتم خلف خيالاتكم.. أتـدرين أن عـدداً لا بأس به من الفلسطينيين يرددون دائما قولهم "ربنا يديم علينا الاحتلال"؟ إنهم مجموعة من المرتزقة قد يشردون جوعاً إذا تركتهم إسرائيل في حالهم، وإلا فمن أين سـتنهمر علـيهم الملايين من الدولارات التي تأتي لهم على سبيل المساعدات من جميع دول العالم كشعب مقهور إذا تركته إسرائيل؟ دعك من هذا، أنظري إلى رئيس السلطة الفلسطينية الذي يخـرج

علينا ساعة بعد أخرى بكل صفاقة ليتهم جماعات فتح وحماس وحزب الله الذين يدافعون ويستشهدون من أجل ما يظنونه حقاً من حقوقهم، وهذه قناعاتهم الخاصة التي قد أقتنع بها أو لا أقتنع، ويقول إنهم إرهابيون، وإن ما يقومون به إرهابية محضة.. هل بعد هذا تناقض؟ بالله عليك حينما تستمعين إلى مثل هذا القول يصدر من رئيس السلطة الفلسطينية، ألن تتساءلي بعمق عن هويته حتى ولو كان يفعل ذلك مخادعة ومداهنة؟ هل هو فلسطيني مجاهد من أجل حقه المشروع أم مجرد ببغاء من ببغاوات الزعماء العرب الذين يرددون ما يقوله شارون وبوش وغيرهم من ذوي القوة العمياء؟

تقول شاردة:

– يبدو أنك متأزم كثيراً.

بغضب:

– لست متأزماً، ولكنني أكاد أنفجر غيظاً.

– إذا كان الأمر كما تصوره أنت فماذا تقول عن إلهام دسوقي وغيرها من المناضلات اللواتي فجرن أنفسهن في وجه العدو الصهيوني؟

– أنا لا أنكر وجود من يؤمنون بقضيتهم العادلة في وجه هذا الصلف الذي يواجهون به إلا إذا كنت مغالطاً أحمقاً، إذا تفوهت بذلك، ولكنهم قلة، أفاقوا من سباتهم العميق بعد أن باعوا أراضيهم وممتلكاتهم للآخرين ثم يجيئون بعد ذلك كي يطالبوا الآخر بها على الرغم من أن العقل الواعي يقول إنهم

لا بد أن يحيوا جنباً إلى جنب، بأي شكل من الأشكال، سواء في اتحاد فيدرالي أو كونفدرالي، أو ما إلى ذلك من أشكال الحياة التي يرتضونها لبعض، إلا أن الفلسطينيين يصرون علي أراضي 1948 وهذا ما لا يمكن أن يحدث أو توافق عليه إسرائيل ومعها جميع دول العالم، لأن معنى ذلك خروج اليهود جميعاً من فلسطين وفي هذا خطر على أمريكا وغيرها من دول أوروبا.. صدقيني، أنا أكثر الناس تعاطفاً مع الفلسطينيين، ربما أكثر منك، ولكني لا أنساق خلف عواطفي الملتهبة، بل أحاول التفكير أولا.

- إنك تحيرني بحديثك هذا.. لست أدري كيف يصدر من أحد المثقفين.

بضجر:

- إن هؤلاء المتثاقفين المتشاعرين وغيرهم هم السبب فيما نحن فيه من أمراض نفسية مستعصية، هؤلاء الذين تم أدلجتهم بالفكر الناصري ذي المد القومي الواهم هم الذين انغلقوا على ذواتهم المريضة الفارغة ذات الأوهام الضاربة في عمق الخمسينيات، حتى إنهم لم يستطيعوا الخروج من أوهامهم حينما أرادوا فعل ذلك.

أصمت برهة لأقول:

- أتذكرين منذ عام تقريباً، حينما حدث ما يسمونه بالانتفاضة الفلسطينية الثانية؟ كان العالم كله يصحو وينام في سباته العميق على صور المجازر التي يقوم بها العدو الصهيوني، كنت وقتها أجلس أمام وسائل الإعلام العربية العقيمة لأرى

مثل هذه الصور التي تترى علينا بأخبارها الحالكة، ثم لا يلبث هؤلاء الحمقى أن يفصلوا هذه الأخبار بفاصل من الأغاني البلهاء التي يسمونها وطنية من أمثال يا حبيبتي يا مصر، والحلم العربي وما إلى ذلك من الأغاني التافهة، التي تثير داخلنا الحنق وفقد الانتماء بدلاً من تنميته. تقول متحدية:

– وماذا تريد منا أن نفعل أيها المارق؟ إذا لم يكن هذا يروقك فما هو الحل عندك أنت؟

أقول مندهشاً:

– أنا ليس عندي أي نوع من الحلول؛ كل ما هنالك إنني أحد هؤلاء الأشخاص الذين يتأملون الواقع المحيط بهم بكل ما فيه من هوان، وسياسات متخبطة حمقاء وعفنة، ثم يقول رأيه الخاص المبني على نظرة ثقافية ما، والتي لا أفرضها على الآخرين، وإن كنت أحتفظ بها لنفسي، ولكن خلاصة الأمر إنه إذا كنا نريد كأمة عربية أن نفعل شيئاً ما، من البديهي أن الفعل أقوي كثيراً من القول، وهذا هو المنطقي الذي لا ننتظر الآخر كي يقوله لنا، إلا إن كل ما نفعله الآن مجرد الكلام.

خيم علينا الصمت بطنينه الذي أشعره يضغط على طبلتيّ أذني حتى يكاد أن يمزقهما، يا لتلك اللعينة، أية ساعة منحوسة تلك التي جعلتها تفتح المستنقع الراكد الذي كان مغلقاً داخلي؟ كنت قد أغلقت ذلك الجرح القديم الغير قابل للالتئام منذ زمن

بعيد، أتشعر بالسعادة كلما نكأت جراحي الدامية؟ أم أن هوايتها القديمة في نبش الماضي تسيطر عليها في كل أوقاتها؟ يا لهـــا من ساعة تلك التي هاتفتها فيها، ملعونة هـــي وملعونـــة تلـــك المتأودة العاهرة التي أشعلت في الرغبة فجعلتني أهاتفهـــا، بـــل اللعنة علينا جميعاً كأمة واهية ترزح تحت أوهام يصورها لهـــا عقلها المريض، أتأمل كتفيها العاريين في منشفتها الملفوفة على جسدها ذي الأبعاد المترامية فينتابني شـــعور غريـــب نحوهـــا بالرفض لذلك الجسد الآسر الذي أعشقه كثيراً، وأحفظ تضاريسه بمرتفعاته ووهداته عن ظهر قلب، أرى فيها الآن وجه الشيطان وجميع زبانية الجحيم، لم يعد وجه الله يتشكل في قسماتها كمـــا كان يهيأ لي، أجاءت لمؤانستي في غربتي القاسية ذات الخـــواء اللامتناهي أم جاءت لتزيدني غربة على غربة فأكاد أن أكـــره ذاتي وأكرهها هي والآخرين؟ أتساءل كيف يتحول الإنسان هكذا بين لحظة وأخرى إلى شيطان جحيمي كريه لا نكـــاد نتحملـــه، فلتذهب الثقافة والوطنية وكل هذه الهراءات إلـــى الجحـــيم إذا كانت داعياً لمثل هذه الحالة التي تنتابني كلما تأملـــت حـــالهم، كانت دائماً ما تهتاج عليّ معدتي في مثل هذه الأوقات فأشـــعر بلهيب قاس يكاد أن يحرق معدتي ليتصاعد إلى مريئي الملتهب، بدأت الحالة تتزايد فألقيت بكأسي المنسكب أرضاً، أتأمله وقـــد تحول إلى فتات من زجاج كان ذو تشكيل بـــديع منـــذ برهـــة، تنزعج لتعتدل في جلستها المتكئة ذات الانسياب الأنثوي المدلل الذي يكاد يشعر جميع مخلوقات الأرض بالرغبة القاسية فيهـــا.

تقول منزعجة:

– حبيبي.. ماذا هناك؟ أتشعر بشيء؟

لم أكن أستطيع الرد عليها، مغص قارص كـــان قـــد بـــدأ يتصاعد ألمه يتركز في معدتي تماماً، حتى لكأني أشعر بـــه ذي رجع شديد في ظهري عند المنطقة المواجهة له تماماً، فورانات هائلة من البراكين اللاهبة تموج مرتفعة مـــن خـــلال مريئـــي الملتهب حتى إنني أشعرها غاصة في حلقي تكـــاد أن تخنقنـــي التهاباً، وجهي الذي اكتسي بالحمرة القانية أزعجها كثيراً فجعلها تصرخ دامعة، أراها تدور حول نفسها ثم تعود كي تدور حولي غير مدركة فيما يجب عليها أن تفعل، حركتها العصبية حـــولي كانت تزيدني عصبية، كدت أصرخ فيها أكثر من مرة أن تكف عن حركتها الدائبة، إلا إنني كلما حاولت النطق كان الفوران ذو اللهيب الأحمق يتصاعد إلى حلقي ليغص إياه، تنسدل منشـــفتها التي تلتف بها حول جسدها فأراه متألقا مشعشعاً في عتمة زمني الآني، لجسدها جاذبية خاصة تكاد أن تضارع جاذبيـــة نســـاء الأرض جميعاً، حتى أنه يجعلك ملتصقاً به في جميع حالاتـــك، أشعر بأنفاسي تلهث متلاحقة ثم لا تلبث أن تتقطـــع متباعـــدة، فكنت أشهق على فترات متباعدة شديدة الصعوبة، عنـــدما بـــدأ وجهي ذو اللون الأحمر الكابي تبدو فيه بعض النقاط البيضـــاء ربما لنقص الأكسجين الداخل إلى رئتيّ كانت قد وصلت إلـــى أقصى درجات يأسها، بينما دموعها المنهمرة على صدري تكاد أن تكون كالسيل الجارف، أنظر لجمال جسدها العـــاري بينمـــا لسان حالي يتساءل، لماذا تبكي تلك الحمقاء هكذا وكـــأنني قـــد

مت؟ إن لبكائها ارتعاشة قوية تهز أرجاء الجسد الـواهي فـي عريه المقدس، ما كدت أتحامل على ساقيّ الواهيتين إلا وانزلق من فمي كالسيل سائل شديد الصفرة له رائحـة نتنـة تكـاد أن تقرب من رائحة النشادر، تنطلق الرائحة الخمرية فـي الهـواء المحيط فأشمها لاذعة حارقة، كانت الدفعات المتتالية التي أقيئها تكاد أن تخنقني بينما جسدي يحاول أن يطردها بقسوة منتفضـاً تلك الانتفاضة الشبيهة بالانتفاضة الأخيرة للجسد، التـي ينتقـل بعدها إلى أبعاد أخرى لا مرئية، ما أن انتهيت إلا وبدأ صدري يعلو متهابطاً في سيمترية منتظمة، بدأ الألم يزول بطيئاً بينمـا حالة صفاء ذهني ونفسي غريبة قد شـملتني، أراهـا تجلـس جواري بجسدها المتألق في عريه وقد هدأت أنفاسـها وكأنهـا كانت تعاني منذ برهة مما كنت أعانيه تمامـاً، إلا أن دموعهـا المنسربة من حدقتيها الواسعتين ذاتا التناقض اللوني الوحشي قد ازدادتا تألقاً وفتنة. تقول محاولة اصطناع الضحك العصبي:

– أيها الأبله، لقد ظننتك تلفظ أنفاسك الأخيرة فكدت أموت معك أنا الأخرى، ماذا بك؟ أتعاودك هذه الحالة كثيرا؟

لم أعر سؤالها اهتماماً، كانت عيناي تجولان فـي أرجـاء جسدها المترامية ذات السحر العجيب بينما تعتمل فـي داخلـي رغبة سادية قاسية في جرحها أو نكأ ماضيها مثلما كانت تفعـل معي منذ برهات، أبدأ في نبش الماضي بأظافري فـي قسـوة حينما أقول لها هادئاً:

– دعك من حالتي تلك.. أتذكرين ذلك الفتى الذي كان يجلـس معنا في لقائنا الأول حينما التقيتك مع البعلي؟

لم يكن ذكاؤها هيناً، رأيتها تعتدل في جلستها وكأنها تستعد لصد شر ما بدأ يحيطها، يبدو أن فطنة المرأة قد جعلتها تـدرك إنني أتربص بها شراً. تقول متوجسة:

- ماذا به؟
- لقد رأيته بالأمس في ميدان الألفي.
- ماذا في ذلك؟

ثم تستطرد ضائقة باللعبة الغبية التي أنا على وشك البـدء فيها:

- ألق ما في معيتك كيفما اتفق ولا داعي لما تفعله مـن لـف ودوران، لا أظن أن هناك داعياً لذلك.

يا لذكائها، يبدو أنها تحاول أن تصد متفادية ما أشرع فـي فعله، أقول بعد فترة صمت وكأنني لا أعرف كيف أجرحها:

- أكنت على علاقة به؟

متنمرة:

- أية علاقة تقصد؟ أهي علاقة من تلك التـي يصـورها لـك خيالك المريض؟
- أجل.. علاقة جنسية ما.

تنظر إليّ مغتاظة، عيناها اللتان أعشقهما كادتا أن تدفعاني للتراجع عما أنا مقدم عليه، ولكن غيظي الشديد من الحالة التي أوصلتني لها منذ دقائق كان يدفعني للاسترسال فيما أفعله، تقول وقد بدأت سحابات من الدموع المكظومة تبدو في حدقتيها:

- أنت سافل، ألأني أحببتك ووهبتك ذاتي بكل ما فيها تحـاول إهانتي؟

أشرد بعيداً في عوالمي الخاصة العميقة حيث تلك الفتاة ذات الوجه الصبوح التي كانت على علاقة مع البعلي، كان جالساً وحده في أبهائه الخاصة، كنت كثيراً ما أقطع عليه خلوته مشاكساً:

- ماذا بك أيها الهمام؟ أراك تجلس وحدك، أهجرتك حبيبتك ذات القفازين النورانيين؟

كنت أحب مداعبته بذلك لأنها ترتدي قفازين دائماً نتيجة حساسية من ضوء الشمس. يقول زافراً:

- بل أنا الذي هجرتها.

يخيم علينا الصمت الطويل حتى لكأن قروناً طويلة قد مرت علينا قبل أن أقول له:

- لماذا؟ إنها متيمة فيك حباً، أجننت؟

- لم أجن أيها الغبي، كل ما هنالك أنها لا تناسبني.

غاضباً:

- منذ متي وهي لا تناسبك؟ أعلم جيداً أن علاقتكما حميمة.

بهدوء كالثلج:

- ولهذا تركتها.

- ماذا؟

- لا تندهش هكذا.. لقد أعطتني كل شئ، روحها وجسدها لأنهل منهما.. بالتأكيد إنها على استعداد تام لاعطائهما لغيري مثلما فعلت معي، لا أظن أن مثلها تصلح رفيقة.

يقولها وكأنه يقرر حقيقة واقعة، ياله من سافل، كيف يفكر ذلك المجنون؟ أمن الممكن أن يكون كالآخرين في أسلوب

حياتهم وتفكيرهم الغبي؟ لكني لم أعهد منه ذلك، كان يرفض المجتمع بكل ما فيه من تفكير غبي وعادات قبيحة، أتكون ردة غريبة قد أصابته بالجنون؟ أقول غاضباً:

– انك تتحدث تماماً كما يتحدث هؤلاء الأغبياء الذين يحيطوننا.

– ليسوا أغبياء، هم أكثر تعقلاً منا.

– أيها المنافق، وأين كلامك عن جبال الإرث البغيضة التي نتوارثها جيلاً بعد جيل في مجتمعاتنا العربية؟ هل ذهب كل ذلك أدراج الرياح؟ أم مجرد مجموعة من الشعارات الجوفاء التي تتشدق بها أنت وأمثالك لمجرد صنع هالة من الشموخ والتقدمية والتحضر؟

أراه التزم الصمت، وكأنه غير راغب في استمرار تلك المناقشة. يزداد غضبي فأقول له:

– يا لك من نذل.

لم أمتلك نفسي فبصقت على وجهه تاركاً إياه بينما كلماته تتهادى مع الريح في أذني:

– أنت تعيش في يوتوبيا خاصة بك.

تنقشع دوامات الذاكرة التي أسبح فيها على صوت نهنهات لينا ذات الألق النوراني، أحاول إصلاح ما كسرته منذ برهات فأقول مندفعاً صادقاً في قولي:

– لم أقصد هذا الوصف الذي وصفتي نفسك به، ولكني أرغب معرفة كنه العلاقة بينكما.

– منذ متي تحاول معرفة ما يخص الماضي؟

أقول بهدوء بينما أنا على يقين تام بأن كلامي المستفز سيجعلها تواصل ما بدأته لتّوي:

– إذا لم تكن بك رغبة في الحديث في هذا الأمر فأنت حرة، أنا أحترم حياتك الخاصة وأعرف أنها ملكك وحدك.

– لقد بدأت لعبتك الحقيرة وأنت تعرف جيداً أني لن أدعها تمر.

كنت منصتا لها فلم أردّ عليها منتظراً استرسالها في حديثها:

– ذلك الفتى من هؤلاء المأفونين الذين تكثر الحديث عنهم في كلامك، فهو لم يكد يقرأ كتاباً واحداً في حياته إلا وظن نفسه من هؤلاء المثقفين المساكين الذين يتباهون ليل نهار بما قرأوه.

كان حديثها عن ذلك الفتى يذكرني بذلك المتشاعر الذي تراه أمامك فجأة كنبت شيطاني في جميع مقاهي وسط البلد، متخذاً مكانه بين الكتّاب والمثقفين سواء في الأتيليه الكائن في ذلك الشارع الصغير المسدود المسمي بشارع كريم الدولة، الذي تم تلويثه بأمثاله من المتثاقفين، أو في الجريون وغيره من تلك الأماكن التي يرتادها أمثالنا، أذكر الآن أن رغبتي السادية القاسية التي انتابتني حينما أردت إهانته عند لقائي به في زهرة البستان هي ذات الرغبة التي تملكتني منذ دقائق لفعل ذلك مع لينا. بدأت أشعر بفدح ما أقدمت عليه فأردت التراجع. ولكن كيف يتأتى لي ذلك بينما قد نكأت جراحها بحماقتي المندفعة؟ أنتبه على صوتها تقول مسترسلة بينما عضلات وجهها قد

تيبست وكأنها تمثال إغريقي قديم قد تم نحته هكذا منذ الأزمان الغابرة:

- كنت أرى في نظراته الدائمة لي ولها عجيبا لم أعهده من قبل في غيره من الآخرين. لم تكن نظراته جارحة على الإطلاق ولكنها كانت أشبه بذلك الكلب الذي يتبع صاحبه ذليلا أينما اتجه حتى ولو وجه إليه ذلك الصاحب أية إهانة قاسية فانه يتقبلها مباشرة عن طيب خاطر...، كنت أندهش كثيرا لذلك الفتى التابع لي ذليلا في نظراته الولهة كظلي إلا أن تلك النظرات كانت تشعرني كثيرا بالانتشاء وأنني ملكة متوجة على عروش الآخرين، لا تحاول تحليل شخصيتي لتقول أنني مغرورة بجمالي فلست كذلك على الرغم من وجود المبرر لهذا الغرور، إلا إني أنثي يحق لها في بعض الأوقات أن تتيه بجمالها الذي يعشقه الآخرون.

تسترسل وكأنها تدفع تهمة عن ذاتها:

- صحيح أنا أمقت كثيراً أن يتعامل معي الآخرون على أنني مجرد أنثي جميلة دون النظر إليّ ككائن ذي كيان وفكر وثقافة، ولكني في بعض الأحيان أمقت تلك الثقافة الجافة ودهاليزها المجدبة لأكون في حاجة ولو لبرهة كي أشعر بنفسي كأنثي راغبة ومرغوبة من الآخر.

أقول بصوت هادئ بينما نبرات صوتي تدل على الندم الذي اجتاحني:

- لينا، أنا آسف.. لم أقصد إيذاءك بهذا الشكل المهين.

تقوم وقد بدا في حركتها الكثير من العصبية لتبحث عن علبة سجائرها المارلبورو، تتناول إحدى لفائفها مشعلة إياها بينما يدها تلقي العلبة في وجهي حانقة، أسمعها تسترسل وكأنها لم تسمع ما قلته، بينما تزفر دخان سيجارتها بقوة فيتهدل نهداها اللذان كانا دائماً يأبيان إلا الشموخ النافر في محيط الزمن الكئيب:

– لم أتخذه صديقاً لي، فهو ليس بالصديق الذي تشعر بالرغبة في الجلوس معه؛ فهو كان يثير ضيقي بتفاهته اللامتناهية، إلا أن تلك النظرات الذليلة المأمورة بجمالي جعلتني أتخذه تابعاً في الكثير من الأحيان حتى أنه كان مادة للتندر وإزجاء الوقت الممل الذي نشعره جميعاً بلا استثناء من ذواتنا.. أوتظن نفسك أيها التافه الوحيد الذي ينظر حوله ليرى ويحلل بكل وضوح ما يدور حوله من هراءات وهذاءات مفتعلة فيشعر بالقرف من ذاته؟ جميعنا يشعر بذلك إلا إننا نحاول جاهدين التكيف مع تلك المتغيرات العجيبة التي تحدث لنا مفلسفين إياها تبعا لقناعاتنا الخاصة، هاربين في ذلك من العزلة التي لا بد أنها قد تقتلنا أو تصيبنا بهلاوس سمعية وبصرية إذا لم نستطع التواصل مع الآخرين، فنحاول السخرية مما يدور حولنا، أو حتى نسخر من أنفسنا، على العكس منك تماماً، تبدو بالفعل مريضاً كما سبق أن اتهمك البعلي من قبل، فأنا على يقين من أن نظرته كانت صائبة حينما قال لك ذلك بقسوة المحب لإخراجك من عزلتك التي

انتهجتها متخذاً منها سلاحاً في وجه الجميع لصـــدهم بعيـــداً عنك.

تصمت متأملة إياي، وقد عاد إليها هدوؤها بعد أن أفرغت شحنتها الغاضبة التي كنت سبباً فيها، تقول بعد عدة قرون مـــن الصمت الذي هبط بيننا كالحاجز:

– أنت بالفعل أحد المرضى إذا لم تخرج مما أنت فيه.

كان جسدها قد استعاد ألقه الخاص، يمرق سهم الدهشة في عقلي مما حدث، أيشارك الجسد الإنسان فـــي حزنـــه فيتهـــدل، وكأنما أصابه الهرم بينما يتباهى بذاته شامخاً في حالات الزهو والفرح؟ لم أتأمل في الأمر كثيراً، كنت خجلاً مما أقدمت علـــى فعله فأردت إنهاء حاجز الصمت الكئيب الذي هبط بيننا، لم أدر كيف أفعل ذلك بعد هذا الجرم الذي اقترفته في حقهـــا، أمنّـــي نفسي أن تصفح عما فعلته بها مقبلة نحوي بصفوها القديم، كان وجهها الملائكي قد تبدل، يا لتلك المشاعر البغيضة التي تتشكل تبعا للحظة. أقول متردداً:

– لينا..

تهتف حازمة:

– لا تنطق باسمي أيها الوغد.

أراها تنهض غاضبة بجسدها البرونزي الباذخ في عطائـــه لترتدي بلوزتها الضيقة الخانقة على اللا شيئ، كانت قد اعتادت على عدم ارتدائها لسوتيانها الضيق الآلم منذ أن قلت لهـــا أنـــه يجرح جمال نهديها، كان ملقى في أحد أركـــان منزلـــي لســـت

أدري أين، علّه في دولاب ملابسي الخاص، فمنـذ خلعتـه أول مرة وأنا أحتفظ به وكأنه جزء من تكوينها الخاص الذي أحنـو عليه مهتماً به، أعرف أنها رغبة فتيشية مريضة قد تتهمني بها لينا في يوم من الأيام، إلا أن كل ما يمتّ لها بصلة هو عنـدي جزء منها حتى ولو كان سوتيانها، أنهض مسرعاً محاولاً إعادة الصفو القديم إلى علاقتنا، كنت أهتم بها كثيراً وأرتاح لمجـرد وجودها المادي إلى جواري. أسمعها تقول بحنو محايد:

– لا تنس أن تنظف منزلك من هذا القيء.

ما أن قالتها حتى جذبتها إلى صدري الواهن بقوة قاسـية، كنت أريد في تلك اللحظة امتزاج جسدينا علّهما يصبحان جسداً واحداً يجري في عروقهما ذات الدم الـذي ينـبض بـه قلبهـا الرقيق، تضعف مقاومتها لتستسلم لضغط جسدي الحاني لهـا، تريح رأسها الصغير ذا الشعر الأسود اللامع المعقـوص إلـى الخلف على عضدي ثم تجهش باكية، أشعرها تضـربني فـي صدري بكلتا يديها قائلة بحب دافق:

– أيها الأحمق، لماذا عمدت إلى ذلك؟

أقول كاذباً محاولاً التهوين من الأمر:

– لم يكن الأمر عمداً، لقد كان سؤالي على سبيل المصادفة.

ترفع وجهي بكفيها المكتنـزتين اللاتـي أحبهمـا كثيـراً بأصابعهما المسحوبة الأطـراف علـى أظافرهـا ذات اللـون القرمزي الدموي. تنظر في عينّي مباشرة فتنهار مقاومتي حينما تقول:

– بل عمدت.

أقول خجلاً:

- أجل.. كان الموضوع عمداً.

متسائلة داهشة:

- لماذا؟ أتستمتع بجرحي؟

- لا تتركي ذهنك المريض يصور لك أوهاماً ثم تصدقينها.. كل ما هنالك أنني شعرت بالغضب الشديد من جراء حديثنا عما يدور حولنا من هوان وتخبط.

تقول باسمة:

- أيها المريض النفسي الذي أحبه كثيراً.

كانت تؤكد لي كثيراً على حبها بالرغم من أنني لم أبادلها ذلك الحب قولاً مرة واحدة؛ فأنا لا أعرف بالفعل هل أنا أشعر بالحب تجاهها أم لا، كل ما هنالك رغبة قصوى في وجودها الدائم معي ربما لمشاركتي عزلتي العجيبة في بعض الأحيان، وأحياناً أخرى كنت أحتاجها لإطفاء شوقي الملتهب إليها، كنت متحيراً في شأني معها فلم أستطع البوح بما يعتمل داخلي من شتات حتى لا أجرح مشاعرها، أراها تنظر في ساعتها لتقول:

- إنها الثامنة صباحاً، لا بد أن أنصرف الآن للذهاب إلى عملي.

أقول جزعاً على فراقها:

- أأراكي اليوم؟

- بالتأكيد ستراني في كل أوقاتك، إنني كقرينك تماماً.

تقولها بينما ترتدي بنطالها الضيق الذي يحبس حركة

ردفيها المنسابين كالماء دون إفراط، أقول وقد اطمأننت إلى صفائها المعهود فيها منذ الأزل:

– أراك الثامنة في اكسلسيور.

تقبلني بنهم وكأنها تأكل شفتيّ بتلك الطريقة التي عهدتها فيها حيث تضغط شفتي السفلى بأسنانها وكأنها تكاد أن تدميها، تتركني وقد أثارت كوامني المدفونة في منذ الأزل لتتناول حقيبتها الصغيرة تاركة إياي لوحدتي الموحشة.

تــوق

أخرج من جريدتي العتيقــة التــي أنشــر فيهــا مقــالاتي المتراكمة، التي يرزح بها فكري بالعديد من الأفكار والمشاريع السينمائية المختلفة في حوالي العاشرة صباحا، أذكر أنني ظللت فترة ليست بالقصيرة في منزلي بطوابقه المرتفعة ذات الطــراز المعماري العتيق بعد أن غادرتني لينا وقد عاد إليهــا صــفوها القديم الذي يجعل جسدها يبدو منطلقاً في جميع أرجاء المكــان، كانت حادثتي الحمقاء التي أقدمت عليها معها قد زادتهــا قربــاً منّي إلا أن شعوري نحوها لم يكن قد اتضح بعد فلــم أســتطع تفسيره، أهو من ذلك النوع الصوفي النادر أم هو نوع من التوق الشديد لجسدها؟ لم أنتبه إلى الوقت إلا حينمــا دقــت التاســعة والنصف صباحاً، تلك الساعة العتيقة التي تعلو أحــد جــدران شقتي وكأنها إحدى التحف النادرة التي توقف بها الزمن آنياً عند فترة الأربعينيات فاندثرت مع الوقت إمكانية تذكر المناسبة التي جاءت فيها لتظل مكانها هكذا وكأنها جزء من تكــوين المكــان الذي ينقص سحره بانتفائها ويكتمل بوجودها، تذكرت وقتها أن هناك موعداً مع رئيس التحرير الذي وعدته بالأمس أن أســلمه مقالي الجديد عن فيلم "النوم في العسل" للمخرج شريف عرفــة مؤجلاً في ذلك مقالي عن "أسرار البنات". أسرعت وقتها فــي ارتداء ملابسي على عجل بينما كنت أطمئن نفسي أننــي لــن أتأخر على موعده؛ فالمسافة من معروف إلى شارع الصحافة لا

تتعدى الخمس دقائق سيراً على الأقدام، كنت قد غادرت مكتبه غاضباً بينما أشعر بنار حارقة تسري في عروقي بعد ذلك الخلاف الذي وقع بيننا للاختلاف في وجهات النظر فاستقللت المصعد في الطابق الثامن هابطاً غير شاعر بما يدور حولي، غير مطمئن إلى أية جهة سأسلك، أسمع أحدهم يحييني بينما خطواتي الغاضبة تتسع مبتعدة عن المبنى العتيق غير مبال بمن وجه إلّى التحية، أشعر بعروقي تكاد تنفجر بدمائها الهائجة التي تصطخب فيها غضباً، أسلك شارع الجلاء عرضياً لأعبر تلك الجزيرة الحديدية المنعزلة التي تقسم الشارع إلى اتجاهين، كانت منذ عدة سنوات طريقاً حديدياً للترام الذي قارب على الاندثار وتقديم أوراق اعتماده ليتم الإلقاء به في مخازن الدولة ذات السياسات المتخبطة الحمقاء التي لا تعرف كيف تحافظ على تراثها وجمال وجهها التاريخي العتيق، يبدو أن القبح قد تملك زمام نفوسنا حتى لم نعد نعرف كيف نحافظ على جمال المكان، ألغي ذلك الترام الآن ليصبح مكانه معبراً لأتوبيسات النقل العام، تلك الخردة التي ما زال المسئولون يسيرونها حتى الآن عاقدين عليها العديد من الآمال الحمقاء، أتأمل الزحام حولي، أشعر برغبة قاسية في الاختلاء إلى ذاتي حتى لا أختنق من هذا القبح الذي يحيطني، زحام السيارات اللامتناهي يشعرني وكأنني انحشرت في علبة من علب السردين الضيقة، أحاول الهروب من أفكاري المتزاحمة الخانقة بالذوبان في تاريخية وسط البلد ذات الحنين القديم، أعبر شارع رمسيس الذي يحلو لي دائماً تسميته باسمه القديم شارع الملكة نازلي، الذي كان يؤاخذني

على مسماه البعلي حينما يسمعني أطلق عليه ذلك الاسم، أتذكره حينما يقول:

– دعك من تلك المسميات التي تجعلني أظن أنك إحدى الكائنات التي انفلتت من عمق الزمن لتأتي إلى زمان ليس بزمانها.

كنت أضحك مقهقهاً حينما أسمعه يقـول لـي ذلـك إلا أن رغبتي في الضحك الآن كانت قد ماتت أو فقدت قدرتها علـى الحياة. أتجه صوب شارع فؤاد الأول الـذي يحلـو لهـم الآن تسميته بشارع 26 يوليو بعتاقته الطازجة فيـه رغـم مـرور الزمن، كثيراً ما أشعر بتلك الطزاجة التاريخية كلما رأيت ذلـك المبني المهيب لدار القضاء العالي الذي يتوسط الشارع متوجـاً إياه شامخاً في وجه القبح والزيف، كثيراً ما كنت أتساءل بأسى:

– هل يفعل الآخرون بتاريخهم ما نفعله نحـن تحـت مسـمي التجديد؟

أتأمل المبني بجلاله وهيبة صورته، أعرف أنه كانت تتقدمه ساحة صغيرة مثلثة تتوسطها الخضرة إلا أن طوفان التغيير ذو القبح الدائم لم يبق على شئ فيه سمة الجمال علـى الإطـلاق، أتخطى سينما ريفولي بما تعرضه من أفلام تافهة، أشعر بـألم الجوع الشديد في معدتي، يا لتلك الحالة البشـعة مـن الخـواء المعدي الذي يصيبني كلما شعرت بحزن ما أو تملكتني إحـدى الحالات العصبية، وقتها أكون على استعداد تام لالتهام كل مـا تطوله يدي، أتخيل نفسي في صورة الرقيقة ذات القوام الرشيق الأميرة ديانا حينما حدثتني عنها لينا، أأكون مثلها؟ يا للبشـاعة.

تنقبض نفسي المائلة للسوداوية من ذلك التخيل المقبض، أنحرف يساراً في تجاه ميدان الألفي ممنياً نفسي ببعض الشطائر من آخر ساعة ذلك الذي يقف راسخاً في الميدان وكأنه ولد معه على الرغم من قبحه وسط المكان بما يسببه من فوضى وازدحام شديد عليه من قبل المنهومين للأكل، علّه التعود على القبح الذي يكسبه الكثير من الطبيعية مع مرور الزمن الآسن، أمر بجوار الجراند أوتيل وممره الضيق لأصل إلى ذلك الازدحام القبيح هناك، رغم وجود بعض البارات القديمة التي أعشقها بينما تجاورها الملاهي الليلية التي أحنو إليها في القليل من الأوقات إلا أنني أشعر بوحشة ما تنتابني حينما تطأ قدمي هذا المكان، أتناول شطائري بينما عينّي تقع على بائعي الملابس الداخلية النسائية الذين يستوقفون أي عابر من أمامهم لعرض سلعتهم، أمر من أمام سينما كايرو بزحامها المعتاد، أزواج لا تحصى من الشباب والفتيات يقفون أمامها في انتظار حفل الثانية عشر والنصف، بعضهم ينتحي المقاهي المجاورة ليدخنون النارجيلة ذات الرائحة النفاذة للتفاح. أقول ساخراً:

- يا لهم من حمقى.

أفكر في الاتجاه نحو اكسلسيور إلا أن يقيني التام بأنه لا يقدم الخمور قبل الحادية عشر صباحاً يجعلني أحجم عن الذهاب إليه، أعرف أن الوقت سيمر برتابة غير معهودة إذا ذهبت لأجلس منتظراً تقديم النبيذ، تقودني قدماي نحو ميدان العتبة مرورا بالميدان العتيق الذي كان والمسمى بميدان الأوبرا، أية

أوبرا بائسة تلك التي احترقت فذهبت هباء كما ذهب كــل مــا يماثلها من جمال؟ أصوات المنادين على بضائعهم ذات اللغــط المتداخل في صخب شديد يكاد أن يصيبني بحالة شــديدة مــن الهياج العصبي، لم أعد أحتمل كل هذا القبح الســلوكي. أعبــر ميدان الأوبرا سريعاً متجهاً نحو مقهى "متاتيا" ذو العبق القديم، لم أدر كيف انبثق مثل هذا المقهى هكذا فجأة وكأنه مبعوث من الأزمان القديمة الغابرة، أندهش لوجوده الآن، أعرف جيــداً أن هذا المقهى الذي كان يختلف إليه قديما الأفغاني وتلاميــذه مــن أمثال محمد عبده قد اندثر مثلما اندثر غيــره مــن العلامــات الجميلة التي كانت، ربما مررت بالأمس القريب من هنا فلم أجد سوي بقايا من خرائبه ومجموعة من الأكشاك العشوائية التــي يتحلق حولها من يرغبون في الحصول علي عقود عمل وهمية إلى الخليج، أعرف أيضاً أنه يكثر هنا من يرغبون فــي بيــع دمائهم وكلاهم، خاصة من السودانيين.

ينتبه إليّ أحدهم أحدث نفسي فيظنني معتوهاً، ولكن كيــف ظهر هذا المقهى إلى الوجود مرة أخرى بعتاقته المألوفــة منــذ زمن؟ أيكون الأمر مجرد أوهام بدأ يصورها لي خيالي؟ ولكــن وجودي أمامه الآن حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلا إذا كنــت أحمقاً، أنتحي إحدى الطاولات المنزوية المطلة على الميــدان، أحرص على أن تكون جلستي في أحد أركانه المستورة، لم أكن أريد أن يراني أحد، حرصت على أن تكون طاولتي مســتورة عن أعين الآخرين وفي ذات الوقت تطل على ســاحة الميــدان

المشوهة بشكل حديث إلا من مباني بريد ومطافئ العتبة التي ما زالت تحيطه مستميتة في وجه التغيير الذي لا بد سوف يطولها في وقت ما، يقترب منّي النادل بزيه القديم النظيف، تبدو على محياة أمارات الدماثة والتأدب المفقودة الآن لدى أمثاله. ينحني قليلا منتظرا منّي ما يستطيع تقديمه لي، أطلب منه فنجالاً من القهوة السادة على عجل بينما يدور على طرف لساني سؤال أحمق لا بد منه وإلا أوشكت على الجنون، أقول متردداً بحياء:

– أليس هذا مقهى متاتيا الذي كان؟

ينظر إليّ الرجل وقد علت وجهه علامات الدهشة حتى كاد أن يتهمني بالجنون لولا بقية باقية من الاحترام الواجب، يقول بعد برهة وكأنه لا يدري بماذا يرد عليّ إن لم يتهمني بالجنون:

– بالتأكيد سيدي هو المقهى الذي تقصده.. ألم تقرأ اسمه بالخارج؟

أقول خجلاً وكأنني آت من زمن آخر:

– ولكن.. أعذرني في تساؤلي، متي افتتحتموه مرة أخرى بعد هذه السنوات الطوال؟

ينظر الرجل إليّ ببلاهة حتى كاد يعدو من أمامي طالباً النجدة من ذلك المأفون الذي لا بد أن يكون مخموراً إذا لم يكن في حالة جنون مطبق لولا بقية من حياء جعلته يقول:

– نحن لم نغلق أبواب مقهانا منذ وجوده سيدي، يبدو أنك مصاب ببعض الإرهاق ولعله قد التبس عليك الأمر.

يقولها الرجل بحزم واضح هذه المرة منهياً حديثه معي وكأنه قد ظنني معتوهاً، أراه يبتعد عنّي مرتبكاً بينما ينظر

نحوي بين الفينة والأخرى، أجول بعيني داخل الميدان متـــأملاً، ولكن كيف يكون هذا المقهى قد انبثق فجأة هكــذا وســط هــذا التنافر العمراني الجديد للميدان ذات الطابع الأوروبي الحــديث؟ ها هي تلك الجزر الخضراء الجديدة ذات الطبيعة المصــنوعة بأسوارها الحديدية المدببة التي تحدها، كانت قد ظهــرت بعــد التخطيط الحديث للميدان وترسيم طرقه وشوارعه الجديدة، أعلم جيداً أنه قد تم حفر نفق جديد هنا المسمى بنفق الأزهــر الــذي يمر تحت هذا الميدان المصطخب، بل أنا على يقين بأن دهاليز مترو الأنفاق ليست بعيدة عنّي الآن، أتوه في الأمــر مندهشــاً لأتأمل رواد المقهى الذين يبدو على محياهم بأن كل شئ طبيعي وكأنه لم يحدث شيئ. أجول بعيني لأفاجأ بأحد الكهول يشاركني طاولتي المنزوية في ركنها الخاص، أتأمله مندهشاً، مــن أيــن انبثق مثل هذا الكهل فجأة هكذا؟ ومن الذي سمح له بمشــاركتي الطاولة؟ أويكون كلام لينا صحيحاً بأنني قــد شــارفت علــى الجنون؟ أطرد ذلك الخاطر الغريب من رأسي لأتأمل الرجــل، منذ متى وهو جالس هكذا مشاركاً إياي في الطاولة؟ لا بد أنــه يجلس هنا منذ فترة أو لعله كان يجلس إليها قبل مجيئي؛ فكوب الشاي الفارغ أمامه يدل على ذلك، ولكن أيكون قد ذهــب بــي الشرود إلى تلك الدرجة حتى أنني لم أعد أنتبــه إلــى رؤيــة الآخرين؟ يا له من يوم ملئ بالمتناقضات، أرى الرجل ينظر لي مبتسماً وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد، أشعر بالغيظ الشديد مــن بسمته، لم أدر كيف تواصل الحديث بيننا ولا من أين بدأ، كل ما هنالك أنني انتبهت على ذلك الاسترسال العميق مــن الحــديث الضارب بجذوره بيننا منذ القدم، يمرق في عقلي سهم الدهشــة

من جراء ما يحدث لي اليوم، حالة عجيبة من عدم تذكر بدايات الأمور تنتابني حتى لكأن سحب كثيفة من الضباب تحجب ذاكرتي التي لا بد أن أكون قد فقدتها، أتأمله في حديثه الذي لم أعد أذكره لعدم انتباهي له، ملامحه القديمة الموغلة في الزمن وتجاربه العميقة شديدة الشبه لي حتى لكأني أرى صورتي بعد مرور العشرات من السنين، أتأمل شعر رأسه الخفيف الذي يشتعل شيباً حتى لكأنه قطعة صافية من القطن الأبيض الضارب للون الأصفر بينما عيناه الفاحصتان هما ذات عيناي تماماً، كان من يرانا جالسين متقابلين هكذا لا بد سوف يجزم بأننا أب وابنه، الشبه الشديد بيننا في الملامح ولعلها طريقة الكلام أيضاً، بالإضافة إلى أسلوب التفكير لا يجعل أحداً ما يشك في ذلك. لست أدري متي بدأت أجأر بالشكوى إليه مما صار إليه الأمر حولنا من زيف وتشويه:

– يا للملل، هذا الميدان صار يشعرني بالغربة الكبيرة.

يقول بخبث بينما عينيه الضيقتين تزدادان ضيقاً:

– الميدان فقط؟

– ماذا تقصد؟

– الميدان وحده هو الذي تشعر فيه بغربتك اللامتناهية؟

أصمت برهة لأقول زافراً:

– وسط البلد كلها صارت تشعرني بالغربة...

يقول بينما ألمح في حديثه صبغة التحليل النفسي:

– يبدو أنك منفصل تماماً عن مجتمعك.

– إنني أمقته بكل ما يتفشى فيه من جهل وتشويه.

- وإذا قدمت لك يد المساعدة؟
أندهش قائلاً:
- أية مساعدة تلك؟!
- لا تغضب هكذا، يبدو أنك لم تعد تعرف كيف تتواصل مع الناس.
أصمت وقد شعرت بالصدق في حديثه. يقول لي:
- ما رأيك أن نعقد صفقة؟
متعجباً:
- أية صفقة تلك التي أعقدها معك؟
- أنت ضائق بكل ما حولك، شاعر بغربتك بين الناس والمكان، تتوق للجمال القديم الذي كان..أليس كذلك؟
مندهشاً:
- بلى..
- سآخذك في رحلة سريعة إلى وسط البلد وجمالها الذي كان.
يشرد قليلاً وقد بدت على محياه إمارات الحنين ليقول:
- وسط البلد التي لم تعرفها أنت ولا جيلك.
متحيراً:
- وما المقابل؟
- تلك هي الصفقة، آخذك لما تتوق إليه في مقابل دفع مصاريف الرحلة من نبيذ وما إلى ذلك.

لم يكن الأمر بسيطاً بالنسبة لي، فقد واعدت لينا للقاء في اكسلسيور في تمام الثامنة، ذلك المكان الذي دائماً ما أتوق إليه

إلا أنني لا أقصده إلا حينما يكون جيبي عامراً، كنت أعرف أنني سأتقاضى مكافأتي اليوم عن آخر مقال كتبته فواعدتها هناك، ولكن ذلك الرجل يعرض عليّ عرضا مغرياً لن يتكرر مرة أخرى، أأفقد نقودي من أجل تلك المغامرة التي لا أعرف كيف ستنتهي بي؟ وكيف أستطيع لقاء لينا؟ أفكر في الأمر طويلاً إلا أن توقي الشديد للذهاب إلى جمال وسط البلد المندثر جعلني أتمتم قائلاً:

- فليذهب أي شئ آخر إلى الجحيم.

أنظر إليه باسماً لأقول:

- أوافق على عرضك.

يرد واثقاً:

- كنت واثقاً من ذلك، هيا بنا.

ثقته الشديدة في نفسه أزعجتني كثيراً، كدت أتراجع عن تلك الصفقة اللعينة إلا أنني أحجمت لرغبتي الشديدة في خوض التجربة. يقول بينما يتهيأ للنهوض:

- أعط النادل نقوده كي نستعد.

أقول لنفسي ساخراً:

- ها هي بداية الابتزاز.

يقول الرجل بينما عيناه تسبحان في رحلة أبدية باتجاه الأفق:

- من أين ترغب أن نبدأ؟

أقول حائراً:

- أنا من الآن مجرد تابع مطيع يتبعك أينما ذهبت.

- اتفقنا.

بدأ الرجل يروي لي الزمن الذي كان بينما أقـدامنا تنتقـل ببطء وسط ميدان العتبة العتيق، أراه في روايته وكأنه ينـاجي نفسه وقد تناسى تماما وجودي معه، كانت المشاهد تتشكل ذاتياً بينما هو يروي حتى لكأنني في عالم آخر تماماً غير ذلك الـذي أعرفه، كلما تحدث عن شئ أرى الأشياء وقد تبدلت تماماً حتى لكأنها تعيد تشكيل ذاتها مرة أخرى ليعود بنا الزمن إلى الوراء، كل ما كنت أراه من قبح منذ قليل بدأ يتوارى لتظهـر أمـامي العديد من المشاهد التي لم أعها من قبل، يقول الرجـل مناجيـا نفسه:

- هنا في هذا الميدان الذي كان يسمى العتبة الزرقـاء قـديماً والتي جعلتموها الآن خضراء بدأ الخديوي إسماعيل التفكير الجدي لبناء وسط لبلد على ذلك الطراز الفريد الذي رآه من قبل في فرنسا فخلب لبه حتى تملك عليه أمره.

تكتسب أبنية بريد ومطافئ العتبة فجأة ألقاً عجيباً وكأنها قد تم الانتهاء من تشييدها منذ أيام فقط، أتأمل حولي لأرى العديـد من الفنادق ذات أسماء لم أسمع عنها من قبـل حيـث تشـغل أدوارها السفلية العديد من المقاهي الذائعة الصيت بالإضافة إلى المحال التجارية التي تتقدمها جميعا البواكي في طـراز فريـد ينظمها جميعاً، كنت أرى المقاهي شاخصة أمامي فلـم أصـدق نفسي، الميدان نظيف وكأنه يتم تنظيفه ليل نهار، القليـل مـن السيارات ذات الطراز القديم تعبره بهدوء بينما القليل جداً مـن المارة يعبرون الطريق بأرستقراطية شامخة لم نعد نراها الآن،

الجميع يرتدون بدلاتهم الكاملة المحلاة بالكرافت الأنيـق بينمـا الطربوش المنفوخ الذي تم الاهتمام به جيـداً وتنظيفـه يعلـو رؤوسهم بوقار، كانت الأشياء تأخذ بُعداً آخر غير ذلـك الـذي آلفه، أرى أتوبيساً ضخماً قادماً نحونا وقد علاه دور آخر فـي تشكيل بديع، ما أن عبر بجواري إلا وسمعته يقول:

– إنه الأتوبيس أبو دورين الذي أحضره الإنجليز، ولكـن ذات مرة بينما كان يدور في ميدان إبراهيم باشا انقلـب، أرجـع البعض ذلك إلى أنه كان مسرعاً بينما أرجعه البعض الآخر إلى الانتقام الإلهي من الإنجليز، كما كان ياسـين صـاحب مصانع الزجاج الشهيرة محتكراً للمواصلات في القاهرة قبل سوفت كروفت، تلك المواصلات كانت متعة؛ فبينما تراهـا مكشوفة في فصل الصيف كي تستمتع بجمال المكان الـذي يأسرك حتى أطراف أصابعك كان يغطيها بالكوفرلية أثنـاء فصل الشتاء اتقاء للمطر.. صدقني هنا كنت تستطيع ببساطة أن تشم الياسمين في كل ما يحيطك إذا لم تبتع أحد عقوده من هذا الذي تراه أمامك.

ينطلق إلى أنفي شذي الياسمين وكأنه تخلق فجأة على أثـر كلام الرجل، أسمعه يتحدث وكأنه يطلب منّي شراء أحد عقـود الياسمين من ذلك الفتى الشاخص أمامي، سطوته العجيبة التـي تملكتني جعلتني أشتري له عقداً أعطانيه الفتى بأقل من القـرش بقليل. أقول ضاحكا في سريرتي:

– هؤلاء القوم لا يعرفون قيمة النقود على الإطلاق، يبدو أنني لن أنفق الكثير.

أعطيه العقد الذي يضعه حول رقبته مبتسماً وكأنـــه طفـــل صغير قد فرح بهديتي التي أحضرتها له، رغبة عميقة تراودني في ركوب ذلك الأتوبيس ذي الدورين حينما مر من أمامي مرة أخرى، وكأنه لمح الرغبة القاتلة في عينّي فجذبني مـــن يـــدي لركوبه، كان الأتوبيس هادئاً يكاد يكون خالياً من الناس، لم ألمح فيه تلك التشوهات الإنسانية التي كنت أراها في عـــالمي مـــن زحام بشري وسباب زاعق، أتأمل السائق بإعجاب شـــديد، أراه فإذا بحركة من يده هكذا تجعل الأتوبيس يسير، يا للمهارة، أرى السائقين جميعا في منتهى الأناقة بطرابيشهم الجميلة الحمـــراء بينما المحصل يمشي بيننا في مملكته الخاصة متهاديـــاً بشـــكله المميز بالحزام والحقيبة الجلدية والبذلة الصفراء، يأخـــذ منّـــي مليمين لقاء تذكرتينا، كدت أقهقه ضاحكاً لذلك الثمن الزهيـــد إلا أني أدركت نتيجة فعلي هذا إذا فعلته فوضعت يدي علـــى فـــيّ مبتسماً. أجلس مستريحاً على أحد الكراســـي، أتأمـــل الميـــدان النظيف الهادئ الذي يعبره الأتوبيس بينما يقابلـــه فـــي الجهـــة الأخرى ترامواي مخصوص لرش الشوارع التي تراهـــا دائمـــاً وأبداً مغسولة مجلوة وكأنه قد تم الانتهاء من تنظيفها للتو. كان سائق ترامواي الرش شديد البدانة إلا أنه تبدو على محياه السعادة البالغة بما يفعله، أتأمله بينما عيناي تنتقلان إلى الخـــروم التـــي تملأ الترامواي والتي يخرج منها الماء كالرشاش من الجـــانبين، نوع ما من النشوة العجيبة يشملني لما أراه يتجسد أمامي، يدور بنا الأتوبيس ذو الدورين في اتجاه ميدان الأوبرا فيشـــير لـــي

الرجل الكهل كي أستعد للهبوط، أقوم معه بينما قدماي لا تطاوعاني على الهبوط من ذلك الأتوبيس الذي أعطاني الكثير من البهجة، يميل الرجل على أذني هامساً:

– إذا بقيت هكذا دون الخروج معي فلن ترى كل ما أبغي أن أريك إياه وستذهب رحلتك هباء.

ثم يقول مستدركاً:

– أتدري أن شارع الموسكي الكائن في جنوب ميدان العتبة كان به مسجد عتيق يسمي جامع أزبك، وأن ذلك الحي القديم كان هو محل إقامة التجار الفرنسيين والإيطاليين والشوام والأتراك؟

أقول متسائلاً في محاولة منّي للحاق بحديثه:

– ولكن أين ذلك المسجد الآن؟

– أتقصد في زمانك؟

أومئ له برأسي موافقاً فيضحك الرجل مقهقهاً بينما يده تربت على كتفي:

– أعطاك الله طول العمر.. لقد تم هدمه منذ زمن بعيد بالقياس إلى عصرك عندما تم الشروع في تنظيم المنطقة من أجل شق شارع محمد علي والمسمى قديما بالقلعة، مثلما تم هدم حديقة روستي الشهيرة والتي كانت من أهم معالم الميدان بأشجارها الشهيرة من السنط والجميز والزيتون والنخيل الملكي والتي كانت حولها تتناثر قنصليات العديد من الدول الأجنبية وفنادق شبرد وفيكتوريا وشالز وغيرها من الفنادق الشهيرة.

أنصت للرجل ذاهلاً بعد أن هبطنا في وسط ميدان الأوبرا، أطلب منه الرجوع مرة أخرى إلى تلك المنطقة التي تحدث عنها إلا أنه رفض طلبي بحزم قائلاً:

- لا تضيع وقتك هباء.

أطيعه ذاعناً لقوله، لم تكن لي من حيلة سوى الامتثال لما يقوله؛ فليس من المعقول أن أضيّع بهجة اللحظة الآنية، ولكن من أين عرف الرجل كل هذه الأشياء التي نراها حولنا؟ أتأمله محاولاً الوصول إلى عمره المديد، إنه على أكثر تقدير في التسعين من عمره، أسأله بتردد:

- لكن من أين لك كل هذا العلم بأسرار المكان؟

يضحك الرجل بتؤدة وكأنه يسخر من عقلي الصبياني، يقول بخبرة رجل عاش قروناً مديدة حتى لكأنه قد وجد منذ الأزل:

- كم تعطيني من العمر؟

يصمت برهة إلا أنه حينما يرى حيرتي المرتسمة على وجهي يقول:

- لا عليك، لقد عشت في جميع الأزمان متجولاً وعاصرت جميع الأحداث.

هل يسخر منّي؟ كيف يتأتى له الحياة في جميع الأزمنة الماضية؟ حينما لمح إمارات التكذيب تلوح على وجهي أسمعه يقول:

- لست بساخر منك، إنها الحقيقة التي لن يستوعبها عقلك، لقد

عشت في جميع الأزمنة الماضية حتى أنك ستجدني في مستقبلك أيضاً، ربما تشأ الظروف أن نتقابل مرة أخرى في مستقبلك المديد ووقتها فقط سأذكرك بصدق حديثي إليك، فأنا لست بكاذب.

خشيت أن يكون قد غضب إلا أنني أراه يشير إلى دار الأوبرا - التي لم يعد لها وجود- وكأنه القائم بالأمر:

- ها هي الأوبرا بجمالها العتيق ذي الطزاجة الدائمة، وها هما المهندسان الإيطاليان أفوسكاني وأورسيني اللذان استقدمهما الخديوي إسماعيل من إيطاليا كي يسابقا الزمن من أجل محاولة الانتهاء منها سريعاً، لن تدري على الإطلاق مقدار المجهود الجبار الذي قاما به كي يجعلاها صورة أخرى من أوبرا لاسكالا بميلانو.

أسمع الرجل يحكي بينما أشاهد ما يقوله رؤى العين، كان حشد العمال الذي يعمل نشطاً في بناء الأوبرا يضج به الميدان، يصطدم بي أحدهم الذي كان ممسكاً بعرق كبير من الخشب، أعتذر له فلا يعيرني انتباهاً، أنظر لصاحبي الكهل متسائلاً إلا أنه يبتسم مهوناً من الأمر ليقول لي:

- دعك منه، أتدري أن ذلك الخشب النادر الذي يحمله هؤلاء العمال قد تم استيراده خصيصاً من لبنان؟ ولعل ذلك كان السبب الأساسي الذي ساعد في الانتهاء من هذه الأوبرا في ستة شهور فقط.

لم يكد الرجل ينتهي من حديثه إلا ورأيت الأوبرا بوقارها الجميل وقد اكتملت تماما لتصبح على أبهى ما يكون، أرى

واجهتها المطلة على الميدان التي تكاد أن تقرب من الستين متراً، يأسرني منظرها فأقف مبهوتاً، لم أنتبه من دهشتي إلا على صوت الكهل المصاحب لي قائلاً:

– أستقف أمامها هكذا طيلة اليوم؟ دعك منها كي تستطيع رؤية غيرها.

يقولها بهدوء ثم يشير إلى الجانب الآخر حيث الجمال الأخاذ، أذكر أنه في زمني كان ما يشير إليه مجرد قطعة صغيرة من الأراضي الخضراء المتقلصة والمهملة دوماً في قلب الميدان، أذكر أيضاً إنها لا تكاد تحوي سوي اللصوص والشواذ والباعة الجائلين ناهيك عن بعض بنات الليل، إلا أن ما أراه الآن كان شيئاً آخر مختلف تماماً، أقول هاتفاً كطفل صغير:

– أليست هذه حديقة الأزبكية؟

يقول مقهقهاً:

– في زمانك أنت تستطيع أن تطلق عليها مزابل الأزبكية أو ما يحلو لك من مسميات، أما في هذا الزمن الذي نعيشه الآن فهي بالفعل فردوس الأزبكية المفقود في زمانكم التي قام بتنسيقها ماريل دي شام منسق الحدائق الملكية الفرنسية حتى جعلها صورة جديدة تكاد أن تضارع حدائق مونكيو الفرنسية الكائنة في قلب باريس.

كان الزمن يمر أمامي متسارعاً كطرفة جفن العين، ما أن يبدأ حديثه إلا وأرى التجهيزات التي كانت لإعداد المكان وما أن ينتهي إلا وأرى كل شئ مكتملاً في صورته النهائية وكأنني

أمام فيلم سريع ينتهي كومضة. كان الرجل يتجول بنا آنياً في عمق التاريخ بلا ترتيب فيحيرني معه، يراني متأملاً للجمال البكر فيجذبني من يدي لدخول تلك الحدائق الغناء. أسمعه يقول:
– تعال، سأريك ما لم تره من قبل.

أرى مدخل حديقة الأزبكية تحفه الأشجار النادرة على الجانبين بينما تتخللها العديد من الأزهار ذات الألوان المختلفة، يحيطني من جميع الجهات شذي الياسمين الذي تستطيع تنسمه في أية جهة تذهب إليها، ينحني لنا أحد الحراس عند دخولنا، في انحناءته إجلال ووقار، أسمعه يحيي الكهل الذي يرافقني فأرى رفيقي وقد رفع يده نصف رفعة، يا لذلك الرجل العجيب، أيعرفه كل من بالمكان؟ نعبر المدخل المصفوف بالأشجار لتطل عليّ مساحات شاسعة من الخضرة المختلفة، التي تبدو وكأنها أتت من جميع بلدان العالم، يشير إلى منتصف المكان تماماً قائلاً:
– تعال لترى.

أُطل على ما أشار إليه فإذا هي بركة متسعة بها من الأسماك النادرة والملونة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، كانت البركة شديدة الصفاء بمياهها المتجددة دوما بينما تطل عليها جبلاية مرتفعة نوعاً ما، أسفلها مغارة من ناحية لا بد أنها للعشاق الذين يتبادلون عشقهم المختلس فيها بعيداً عن أعين المتلصصين بينما في الناحية الأخرى يقبع كشك أنيق للموسيقى يلتف حوله ذوو الآذان الصاغية الذين لم يعيشوا في عصري لتتلوث آذانهم بما نسمعه من نشاز، كانت الخضرة الزاهية تتسع

لتغطي أرجاء المكان حتى لكأنك في عـــالم كلـــه مـــن اللـــون الأخضر الذي يتخلل مقاعد الزائرين والتي تظللها مجموعـــات نادرة من الأشجار التي جلبت من جميع أرجاء الأرض. يقـــول الكهل وقد رآني مشدوهاً:

– لا تفتح فمك هكذا كالأهطل لئلا يظنك أحدهم أحد المجاذيب، تعال، ألست من عشاق السينما؟

أقول مندفعاً:

– بلى.. فأنا أكتب النقد السينمائي.

– هنا في هذا المكان البديع تستطيع أن تجلس في سينما حديقـــة الأزبكية ولكن هذه المرة للاستمتاع وليس الكتابة.

لم أكن أنتظر تلك المفاجـــأة التـــي وقعـــت علـــى رأســـي كالصدمة، هنا في تلك الحدائق الجميلة سينما؟ وفي الهواء الطلق هكذا؟ يجذبني الرجل لنجلس في أحد الأركان بعـــد أن قطعنـــا تذكرتين بخمسة قروش، كانت السينما بالفعل في الهواء الطلق، نجلس إلى طاولاتنا الخشبية ذات الذوق الرفيع، أتانـــا النـــادل بمشروب كان عبارة عن خشاف بالأراسيا بالصـــنوبر، يطلـــب الكهل نارجيلة وينهمك في تدخينها بينمـــا ينبهنـــي هامســـاً أن المشروب مضافاً في التذكرة إلا أنني لا بد أن أدفع قرشاً آخـــر من أجل النارجيلة، أدفعه صاغراً بينما عينّي تجولان في المكان الساحر. لم أنتبه للفيلم الذي كان يعرض أمامنا فلم أستطع تذكر أحداثه أو حتى أبطاله بعد انتهائه؛ فسحر المكان كان قد شغلني عنه، يقول الرجل بعد أن خرجنا مـــن ســـينما الأزبكيـــة إلـــى

خضرتها الأسرة:

- تستطيع أن ترى أم كلثوم هنا وتستمع إليها إذا اتسع لنا الوقت وأتينا مساء، بل لعلك إذا كنت من ذوي الحظ السعيد أن ترى الملك فاروق ذاته، فهو يحضر بعض تلك الحفلات.

أقول مأخوذاً:

- أسنخرج الآن؟
- بالطبع وإلا ما استكملت رحلتك التي بدأتها.

نخرج وقد أصابني شئ من الحزن لفراق هذا الجمال، أشير إلى أحد المباني ذات العمارة الجميلة وقد اتخذ مساحة شاسعة من الميدان فيقول لي:

- انه فندق الكونتيننتال الذي لم يعد له وجود في عصركم.

في جهة أخرى مقابلة لدار الأوبرا بشيء من الانحراف أسمعه يقول مشيراً:

- هذا الذي تراه أمامك كازينو الأوبرا لصاحبته ذات الباع الطويل في الفن الجميل صفية حلمي.

أقول وقد عادت إليّ سعادتي:

- لم لا ندخله قليلاً، علّنا نحظى ببعض الوقت الجميل؟

يقول متخابثاً:

- لن تجد ما تبحث عنه هنا، انه في شارع كلوت بك وعماد الدين.

أصمت متأملاً للميدان من حولي، يتوسطه تمثال إبراهيم باشا ممتطياً حصانه على قاعدة رائعة من الرخام بينما كانت

تحيط به نافورات وأحواض للزهور، أتأمل جمال المكان وأرستقراطيته الشماء لأسمعه يقول لي:

– هذا التمثال قد صار سيئ السمعة في الآونة الأخيرة.

أندهش متسائلاً:

– لماذا؟

– إذا قدمت إلى هنا ليلا ستجد العديد من الشواذ الذين يتلاقون هنا تحته.

أتمتم متعجباً:

– حتى في ذلك الزمن؟!

يقول وقد سمعني:

– إنهم في كل الأزمان، دعك من هذا وتعال كي أريك شانزليزيه القاهرة.

تأخذني الدهشة فأقف متأملاً إياه ظاناً أنه يسخر منّي إلا أن علامات الجدية الواضحة على وجهه جعلتني أتساءل:

– هل هناك ما يسمى بالشانزليزيه هنا مثلما هو الأمر في باريس؟

– بالتأكيد، انه شارع إبراهيم باشا الذي تطلقون عليه في زمانكم شارع الجمهورية.

يجذبني الرجل من يدي بينما عيناي تجولان حرة في أرجاء المكان، كانت رموز وعلامات المعمار ذي الطابع الفني الآسر الذي يأخذ ذلك الطابع الإيطالي العتيق تتراكم على المكان فتكاد أن تشعرك بأنك تسير في أحد شوارع الفن الزاخرة، أرى العديد

من الأبنية والمتاجر ذات الطراز المتشابه إلى حد بعيد مع تلك التي أحاطت بالأزبكية، هناك أيضاً بعض الفنادق التي كان أشهرها فندق شيبرد بمعماره الفني الرفيع، أتأمل الشارع بامتداده الطويل ذي الاستقامة بينما الأشجار الوارفة تحف الجانبين حتى لكأني لست في وسط البلد التي كنت أعرفها، حركة الحناطير ذات الوقع الموسيقي الصادر من سنابك الخيل له انسياب خاص في الأذن بينما تعدو القليل من السيارات ذات الطابع الأربعيني، الشارع يكاد يبدو خالياً، أتأمل رواده القلائل الذين يرتدون بدلاتهم الكاملة وطرابيشهم الحمراء في أناقة لم نعد نعهدها، القليل من النساء يرتدين زيهم الأثير المميز لذلك الزمان العتيق بينما يسرعن الخطو في استقامة، أدقق النظر في إحدى تلك النساء متأملا إياها بعينيها الواسعتين المكحلتين، كان فيهما ذلك التناقض الحاد بين الأبيض والأسود الذي أعشقه كثيراً في عينيّ لينا فتمتلك عليّ زمام أمري، أتأمل خطوات المرأة الواثقة ذات الدبيب الراسخ على الأرض، تتهادى اليتاها في رسوخ مع كل خطوة تخطوها، كان فيهما ذلك الانسياب المترجرج الذي يميز ردفي لينا، أوتكون هي تلك الواعدة وقد حاصرتني في جميع أزماني؟ أنتبه على صوت الرجل:

- لا تنظر للنساء هكذا أيها الأحمق، أنت هنا لست في زمنك وقد يقضي عليك أحدهم هنا إذا ما رآك تنظر إلى النساء بمثل هذه الوقاحة.

تجول عيناي في المكان متجاهلاً كلام الرجل لي، أشعر بأني في حلم لا أرغب في الإفاقة منه، يا للجمال لو ظللت أحيا

في هذا العالم، تشكل المقاهي المتناثرة ذات الباكيات المتشـــابهة بطرازها الإسلامي العتيق منظراً متآلفاً جميلاً، ألحظ أن معظمها يحتوي على بار جميل هادئ، أشعر بالرغبة الشديدة في احتساء كأسين من الويسكي، أخبره برغبتي إلا أنه يعرض عنها قائلاً:

– سنحتسي كل ما ترغبه، ولكن ليس هنا.

متذمراً:

– أين إذن أيها الحاكم بأمره؟

يقول غير ملتفت لي وقد استمر في سيره:

– هناك في ميدان المحطة الذي تعرفونه باسم ميدان رمسيس.

أحث الخطى محاولا اللحاق بالرجل الذي اتسعت خطوتـــه، ألحقه وقد قاربنا على ميدان المحطة برواده الكثيـــرين نوعـــاً، الذين يصبون فيه من شتى الأقاليم زوارا أو مســـافرين، كـــان الميدان على الرغم من زحامه النوعي يبدو هادئاً جميلاً تميـــزه النظافة التي هي طابع عام لأرجاء وسط البلد، أنـــدهش حينمـــا أرى التمثال الذي يتوسطه. أقول مشيراً:

– أليس هذا تمثال نهضة مصر لمحمود مختار؟

– بلى، فيم تعجبك.. ألم تره من قبل؟

– بالتأكيد رأيته، ولكنه في زمني في مســـتقره عنـــد جامعـــة القاهرة.

– هذا التمثال أزاح الستار عنه في موقعه هذا الذي أمامك الملك فؤاد في الثلاثينيات في احتفال مهيب، كان ذلك قبل إعـــادة تنسيق الميدان في الستينيات؛ ورفع هذا التمثال ليوضع مكانه تمثال رمسيس.

يستطرد الرجل:

- تعال نتجول في الزمن لأريك ذلك الحفل البديع.

يأخذني الرجل لنجول في الزمن الذي كـان، لسـت أدري كيف تتشكل الأشياء بقوتها الذاتانية فتتغير متحولة، أقول مأخوذاً وقد رأيت ذلك الحفل المهيب الذي انبثق أمـامي عنـدما أزاح الملك فؤاد الستار عن التمثال:

- كم كان جميلاً ذلك العصر الذي نحياه الآن.. إن هؤلاء الناس فيهم ألق عجيب لست أدري مصدره.

مبتسماً:

- انه سحر الماضي أيها المجنون بالتوق إلى ماضيك.

أتأمل مباني السكة الحديد في ارتفاعاتها الشامخة وصورتها الجميلة المجلوة، كانت تشغل ضلعي مستطيل بينما كانـت ولا تزال تعد ملمح التنظيم والهوية لذلك الميدان العريق، بالتأكيد أن من قام بالتخطيط لمثل هذه المباني كان فناناً عاشقاً بحق؛ فقـد استوحى الطراز الإسلامي الذي أدمجه مع الطراز الأندلسي ذي الحنين القديم، كانت القاهرة بوسطها الجميل تعد بحـق مدينـة للفنون والفنانين. يقول الرجل بهدوء:

- هذا الشارع أطلق عليه الملك فؤاد اسم زوجته الملكة نـازلي بعد أن كان يسمى شارع عباس نسبة إلـى عبـاس حلمـي الثاني، أما بعد التشويه الخطير الذي قاموا به فقد صار بقدرة قادر شارع رمسيس.

أسمعه بينما عيناي تجولان جاهدة لرؤية شارعي الفجالـة وكلوت بك بشهرتهما ذات التضاد، ينظر إليّ فـيلمح حيرتـي.

أقول:

– أين كلوت بك والفجالة؟

يشير بيده وقد انحرف بعض الشيء عن الميدان:

– ها هما هناك، أيهما تود رؤيته؟

– الاثنان.

ندخل شارع الفجالة المزدحم بالمكتبات، أقول محدثاً ذاتي:

– يا لهذا الشارع، إنه منذ القدم مصدر للإشعاع الثقافي.

العديد من الكتب التي كنت أسمع عنها ولم أعد أراها لاندثارها تتراكم أمامي جديدة مزهوة، ها هي العديد من المكتبات المزدحمة بروادها الكثيرين، أندهش كثيراً، مكتباتنا اليوم تكاد تكون خاوية من زوارها لا تستطيع أن ترى فيها إلا كتبها الحزينة لفرط ما وضعت على رفوفها دون قارئ يقتنيها. أتساءل هامساً:

– من أين يأتي كل هؤلاء لشراء الكتب؟

يتهادى إليّ صوت أحدهم هادئاً وكأنه يهمس لنفسه، أسمعه يسأل عن كتاب الملل والنحل لأبي الفتح الشهرستاني، ألمح في حديثه لهجة ريفية ما، أتجه إليه ببصري متأملاً إياه ببدلته الكاملة ذات الكرافت والطربوش الأحمر النظيف، رغم زيه الكامل الذي يحرص على نظافته إلا أن سماته الريفية تبدو على محياه من خلال نظراته غير الثابتة غير الواثقة، أرغب في اقتناء أحد الكتب الذي لم أعد أذكر اسمه إلا أن الرجل الكهل مانعني حازماً، اترك المكان بينما أتميز غيظاً، أهب في وجهه:

– مالك تتعامل معي هكذا وكأنك قد امتلكتني؟ أعبد أنا؟

يقول هادئاً واثقاً:

– لست بعبد لي، ولكن الصفقة المنعقدة بيننا كانت واضحة.

– صفقتك اللعينة هذه كانت قاصرة على مصاريف الرحلة فقط.

– إذا تأملت لحظة لأدركت أنها تتضمن في ثناياها الطاعة الواجبة لي طوال الرحلة لأنني المسئول عنك فيها.

يقول بعد لحظة:

– إذا رغبت في إنهائها الآن فليكن، ليس لدي أي مانع.

أصمت حانقاً لنتجه صوب شارع كلوت بك بشهرته الواسعة ونسائه الجميلات الممتعات، الكثير من الإنجليز يرتادون الشارع بزيهم العسكري المميز، الكثير منهم يرطن بإنجليزية رصينة ذات نغمات واضحة مع بعض المومسات المصريات اللاتي يعرفن اللغة جيداً، أرى أحدهم وقد انتحى أحد أركان الشارع متحدثاً مع إحداهن بعربية متكسرة مثيرة لعاصفة من الضحك، أتأملها في جونلتها الشديدة الضيق، الشديدة القصر التي تكاد تظهر سروالها الداخلي الصغير الذي لا بد أنه الآن يحبس حركة ردفيها الراغبين في الانطلاق، تثار داخلي رغبة قوية مستميتة لمضاجعة تلك المرأة حينما أتأمل ساقيها الملفوفتين، لهما لمعان ذو ألق مبهر يكاد أن يغشي العين في وقفتها المتثنية وكأنها عكاز معقوف من أعلى، نهداها الباذخان يكادان يشقان بلوزتها الصارمة الضيقة ذات اللون الأحمر الزاهي حتى لكأنهما أسيران يتوقان للحرية البعيدة، تتهادى إلى أذني بعض كلمات سباب من الرجل الإنجليزي الذي يساومها،

كانت مصممة على جنية كامل إلا إنه لا يرغب في دفع أكثر من نصف جنية، ترفض المرأة بشموخ غريب ثم لا تلبث أن تتركه بدلال متثنية في مشيتها التي تكاد أن تذهب بأرواح الجميع، كانت تعي جيداً ما لفتنتها من أثر خلاب على الرجال مما جعلها تدرك أن الرجل لا بد سيتبعها ذليلاً مذعناً لرغبتها. يُسرع الرجل الإنجليزي بصلفه العجيب خلفها ليجذبها بقسوة من ذراعها اللين الذي ظننته قد انخلع في يده، يتعالى صوت المرأة صارخاً إلا أن رواد الشارع الكثيرين ينظرون إليها بلا مبالاة وقد بدت في عيونهم الرغبة فيها إلا أن وجود الإنجليزي معها يجعلهم يستمرون في طريقهم، أشعر بغيظ شديد من ذلك الإنجليزي، أسرع لتخليص المرأة من يده فيجذبني الرجل الكهل محذراً:

- إياك أن تتدخل.
- ألا ترى ذلك المأفون وفعله معها؟

كان صوتي قد ارتفع مما جعل البعض يلتفتون إلينا. يقول الرجل الكهل هامساً:

- لا تلفت إلينا الأنظار ودعك منهما، إنها حياتها التي ارتضتها لنفسها وهي تعرف كيف تعالج الأمر.

أصمت مذعناً لأسير إلى جواره، أمر من جوارهما فأراهما يتحادثان بينما عيناها الجميلتان تنظران في عينّي بجرأة غير مألوفة، كانت عيناها داعيتين إلى عشق لا ينتهي مع ذلك الجسد الآسر، أقاوم رغبتي في اختطافها، أهرب من عينيها بتأمل

الشارع ذي البيوت والبارات المتعددة. أقول للرجل:

- ألن ندخل أحد هذه البارات لنتناول شيئاً؟
- لا يمكنني الاطمئنان لك هنا بينما تلك الرغبة العارمة التي تعتمل داخلك نحو النساء تمتلك عليك زمام أمرك.
- لكنك وعدتني أن نحتسي كأسين.
- سنفعل، ولكن ليس هنا، بل هناك.

يشير الرجل بيده نحو ميدان المحطة، أتجه صاغراً عابراً الميدان الفسيح بسياراته القليلة وحناطيره التي تتهادى هادئة، ندخل أحد المقاهي الذي يوجد بداخله بار يتوسط المكان بينما يقف خلفه أحد السقاة الذي يبدو على محياه أنه ذو أصل أجنبي، ما أن يعتلي صديقي لكرسيه العالي الكائن أمام البار إلا ويحيه الساقي بمودة تدل على أنهما متعارفان منذ زمن بعيد، يتبادلان بعض الكلمات ليقول لي الرجل بحزم بينما يرشف كأسه:

- سنعيد صياغة الصفقة التي بيننا هنا وإلا تفارقنا الآن.

أقول بجفاء:

- هات ما لديك.

يقول بمودة متجاهلاً جفائي:

- إذا رغبت أن تكمل رحلتك فعليك الالتزام بعدم التدخل فيما لا يعنيك، إن هذا العصر ليس عصرك وهذا الأوان ليس أوانك، إنك مجرد ضيف على هذا المكان، ألم تسأل نفسك لماذا رفضت أن تقتني الكتاب الذي أردته؟

أنظر إليه متسائلاً في انتظار إجابته ليقول:

- لأنه لا يحق لك على الإطلاق أن تأخذ شيئاً من هنا إلى عالمك.

- أهذا قانون المكان؟
- إنه قانوني الخاص بي أنا، وبما أني قائد الرحلة فكلامي وإرادتي قانون ينفذ على من يصاحبني.

أجرع كأسي دفعة واحدة لأقول له:

- هيا بنا.

نخرج إلى عرض الميدان لأرى الأتوبيس ذا الدورين يمر من أمامي، شعرت بسعادة قصوى حينما استقللته عندما كنا في ميدان الأوبرا الخديوية فطلبت منه أن نصعد إليه، يطيعني الرجل مبتسماً، حينما ينتبه الرجل إلى اتجاه الأتوبيس الذي سلك شارع الملكة نازلي يطلب منّي الهبوط، أهبط غاضباً ليقول لي:

- سنعود من شارع الشيخ عماد الدين.

ما أن قالها الرجل إلا وانطلقت ضاحكاً، أرى الرجل ينظر نحوي ببلاهة متسائلاً إلا أن رغبتي في الضحك حالت دون الرد على تساؤل عينيه. يقول الرجل بعد فترة:

- علام تضحك؟

أقول من بين ضحكاتي المنهالة:

- أضحك على التفاوت المتناقض بين الاسم والواقع.
- أي تناقض هذا؟ إن هذا الشارع ينسب إلى الشيخ عماد الدين الذي يوجد ضريحه في عصركم بالقرب من تقاطع محمد فريد مع شارع الشيخ ريحان، ولكي أزيدك علماً فان امتداد شارع عماد الدين من شارع فؤاد حتى شارع الناصرية قد أطلق عليه اسم المجاهد محمد فريد عقب وفاته 1929.

- أسمع التاريخ الذي يرويه لي الرجل خجلاً مما فعلت، أتابعه في خطواته التي اتسعت بينما عينيّ تجـولان فـي رحلـة بصرية جميلة مستكشفة لعمق المكان، كان الشـارع بحـق برودواي مصر كما قال لي الرجل الكهـل، أري الشـارع وكأنه مقسوم إلى نصفين، نصفه الأول الذي أراه الآن مـن ناحية المحطة عامر بالمسارح والسـينمات والعديـد مـن الملاهي الليلية المصطخبة، يا للجمال، يبدو أن هذا الشـارع كان شارع الفن باصطخابه الدائم، أشير بإصبعي إلى إحدى السيارات القديمة الفارهة فرحاً:

- أليست هذه أم كلثوم؟

كانت المرأة تهبط من السيارة بوقار بينما يحيطها العديد من المحتفين بها. يقول الرجل:

- إنها هي، سوف تغني هنا الليلة في هذا المحل على ناصـية فؤاد الأول.

أبتسم ساخراً:

- هذا المحل قد صار عمارة ضخمة في زمني.

باسماً:

- إنه قانون الزمن المتغير.

أرى مسرح بريطانيا الذي تعلوه العديـد مـن الملصـقات مصورة عبد الوهاب، كان الإعلان يؤكد أن الرجـل سيشـدو بصوته الملائكي الليلة وكل ليلة أغنية جديدة له، أجول ببصري الذي يقع على مسرح الريحاني العتيق، ما زال في ذات المكان

في عصري إلا أنه لم يكن في نفس الشكل البهيج الذي أراه الآن، كان الملصق الذي يعلو بابه يعلن أنه سيقدم الليلة رواية كشكش بيه، أواصل السير فرحاً بما أراه، أرى محلا كبيراً تبدو عليه الكلفة. أحاول قراءة اسمه المتلألئ فيساعدني صاحبي:

- اسمه البارزيانا.

أقول متسائلاً:

- وما هذا البارزيانا؟ أهو أحد البارات؟
- بالطبع لا أيها المعتوه، انه أشهر محلات الطعام.. هنا تستطيع أن تأكل الأرز بالمخ.

ثم يقول متلمظاً:

- ليس أي أرز مثل الذي تأكلونه في أوانكم، انه أرز الأفرانسيه.. شيئ يجعلك مخبولاً من جمال مذاقه.

أسأله محاولا الهروب من الفخ الذي يعده لي كي أدعوه لتناول ذلك الأرز:

- ما هذه البنايات الضخمة البديعة؟
- إنها عمارات الخديوي التي قام بتصميمها وتنفيذها النمساوي أنطونيو لاشاك بك مهندس بلاط الخديوي عباس حلمي الثاني.

كانت البناية تشكل آية من آيات الفن الجميل. أسأله مستدركاً:

- ألا يوجد هنا مسرح لفرقة علي الكسار؟
- ها هو أمامك أيها الرجل.

أتأمل العديد من البارات المختلفة المزدحمة متلاصقة في الشارع المليء بالحياة الفنية الصاخبة. كنت قد اندمجت تماماً في العالم الأثير الذي أراه حتى أنني قد نسيت تماماً عالمي القبيح ولينا والبعلي ورئيس التحرير الذي تشاجرت معه. نخرج من شارع الشيخ عماد الدين بفنونه الزاخرة متجهين نحو شارع 26 يوليو. يقول الرجل وكأنه شارد:

- إنه شارع فؤاد الأول وقد كان أساسه الطريق الذي قام بتمهيده الفرنسي لوبير كبير مهندسي حملة بونابرت تسهيلاً لمرور فرق الجيش الفرنسي وسرعة وصولها من ميناء بولاق إلى الأزبكية حيث مقر قيادة الحملة بقصر محمد بك الألفي.

أتأمل الشارع الذي تم شقه بشكل يكاد يتعامد على مجري النيل. كان الخديوي إسماعيل أكثر ذكاء حينما شق شوارع وسط البلد؛ حيث حاول أن تكون جميعها موازية للنيل مما يقي الناس أشعة الشمس الحارقة ليل نهار، أما هؤلاء الفرنسيون الأغبياء فلقد شقوها بشكل طولي فتعامدت الشمس تحمي الرؤوس طيلة اليوم على شوارعهم، المباني الموجودة في الشارع تكاد تكون موجودة لا زالت في زمني إلا أن الفارق الوحيد أن هذه التي أراها الآن كانت أكثر جلوة وألقاً. يقول الرجل هامساً:

- تعال، الحرارة هنا شديدة، سنعرج من هنا إلى شارع المغربي.

أتساءل هادئاً:

– أي مغربي هذا؟

– انه شارع عدلي باشا يكن في زمانكم والذي كان ينسب إلى القاضي صلاح الدين يوسف المغربي الذي شيد لنفسه جامعاً عامراً وقبة دفن فيها.. لقد كان رئيسا للأطباء في زمن الناصر قلاوون ولكن الأيام دائما تأتي بما لا تشتهي السفن فتخرب الجامع بتخرب المنطقة عموماً ولم يبق بها سوى ضريح المغربي في مدخل العقار رقم 30.

كان الرجل يروي تاريخ الأماكن بينما عيناي تجولان بحرية في الإبداع المتناسق الكائن حولي، يبدو المسجد بالفعل آية من آيات الفن الإسلامي في العصر المملوكي القديم، مساحته الشاسعة تجعلك تتأمله مبهوراً بما يحتويه من أعمدة رخامية هائلة بديعة التنسيق بينما الزخارف والآيات القرآنية تزين جدرانه المرتفعة والتي تعلوها قبة سماوية عالية معشقة بالأرابيسك الجميل وقد تدلت منها مشكاة هائلة الحجم حتى لكأنها ستهبط على رؤوس المصلين محطمة إياها، أرى المسجد زاخرا بطلاب العلم وحلقاته المختلفة يتدارسون العديد من المسائل الفقهية المعقدة، أسمع صوت أحدهم يتعالى معترضاً على ما يقوله شيخه:

– لكن الإمام الشافعي اختلف معك في مثل هذا الرأي.

يستمع له الشيخ مبتسماً بسماحة وقد بدت على وجهه علامات الوقار والهيبة الممزوجة بالسماحة وسعة الصدر،

أسمعه يقول بهدوء بعد أن انتهى طالبه من الحديث:

– أعلم يا ولدي ما قاله الإمام الشافعي رحمه الله، ولكن الدين بسماحته أعطانا حق الاختلاف القائم على الاجتهاد وإذا لم يكن الأمر كذلك لصار من سبقوني في العلم مجرد آلهة نأخذ عنهم ما يقولونه دون نقاش أو مساس بما يعتقدونه والذي توصلوا إليه عن طريق إعمال أذهانهم.

يقول الشيخ منهياً حديثه:

– هناك فارق كبير يا ولدي بين القرآن والسنة كمصادر للتشريع، وبين الفكر الديني الذي يختلف باختلاف الأشخاص والزمان والمكان.

أرى الطالب الذي يستمع إليه وقد التزم الصمت والتأدب مقتنعاً بكلام شيخه الجليل. أبتسم لما أراه كي أسير مع صاحبي إلا أن يدي ترتفع فجأة مشيرة:

– أليس هذا هو المعبد اليهودي؟

يقول الرجل:

– بلى، انه معبد شعار هاشماشيم أو معبد الإسماعيلية الكبير، وهو يمثل أهم المعابد اليهودية بالقاهرة ومقصدا لكبار الساسة الإسرائيليين.

أرى أحد هؤلاء اليهود يسير هادئاً في وقار متجهاً إلى معبده لأداء شعائره الدينية. يلتفت الرجل اليهودي إلى رفيقي فيحييه وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد، يرد عليه الكهل التحية مصافحاً إياه ليحتضنه مقبلا إياه في خده، يا لهذا الكهل الذي لا

يخلو مكان من معرفته، كان المعبد في أوجه الشامخ وقد امتلأ حتى آخره بالمتعبدين اليهود الذين يقيمون شعائرهم الدينية، أتأمل الشارع الهادئ الذي طالما أعطاني إحساساً عميقاً بتوقف الزمن فيه حتى لكأنه لا يمر على الإطلاق، على الرغم من كثرة رواده نسبيا من المتعبدين المسلمين واليهود والمتآمرين إلا أنه يبدو هادئا كعادته. يجذبني الرجل في اتجاه شارع شريف ليقول:

- هذا هو شارع المدابغ حيث كانت مدابغ الجلود بالقاهرة بمنطقة حوض الشرقاوي وسوق العصر جنوبي ميدان باب الخرق إلا أن الأهالي تضرروا منها فتم نقلها إلى أرض اللوق ليتم نقلها مرة أخرى إلى موقعها الحالي خلف سور مجرى العيون.

يقول الرجل:

– هذا الشارع يمتد من شارع فؤاد ليتقاطع مع شوارع عدلي وثروت وقصر النيل حتى شارع رشدي باشا عند مبنى الأهرام القديم وبار اللواء الذي كانت الصحيفة تعد داخله ثم نسب الشارع في النهاية إلى محمد شريف باشا.

كانت المدابغ المختلفة تكاد أن تزكم الأنوف برائحتها الكريهة المنبعثة منها، هناك العديد من العربات العفنة المحملة بالجلود ذات الرائحة الجيفاء، أرى العمال يفرغون حمولاتهم كي يهرب سائقوها بسرعة من هذه الرائحة اللعينة. أقول متأففاً:

– كيف لسكان هذه المنطقة تحمل هذه الروائح النتنة؟

يقول الرجل متجاهلاً تساؤلي:

- أترى تلك الفيلا الجميلة بحـــديقتها المتســـعة ذات الأشـــجار الوارفة؟

أتابع يد الرجل المشيرة لتقع عيناي على إحـــدى البنايـــات الصارخة الجمال الكائنة عند ناصية شارعي شـــريف وقصـــر النيل. يتابع الرجل حديثه:

- إنها المفوضية الفرنسية وقد بنيت منذ بداية عهـــد إســـماعيل باشا وبعد انتقالها من هذا الموقع تم بناء عمارة الايموبيليـــا الشهيرة مكانها تماماً.

أسمع أصوات العصافير الهائلة والتي تتخذ مـــن أشـــجار الحديقة مستقراً لها تنطلق لتملأ المكان زقزقة مخملية توحي لك بأنها الجنة الحقيقية. أقول للرجل برغبة صادقة:

- لم لا نذهب إلى شارع سليمان باشا؟
- لماذا هو بالتحديد؟
- هذا الشارع أعشقه.

ننحرف مرة أخرى باتجاه شارع عدلي ليلفظنا تماما أمـــام سينما ميامي، كان اكسلسيور على يميننا، أذكر أني قد واعـــدت لينا هنا في الثامنة مساء، لا بأس، بالتأكيد سوف ألحق موعدها. يقول الرجل:

- هذا الشارع لم يتغير كثيراً في عصركم باستثناء الواجهـــات السفلية للمبـــاني التـــي شـــوهتموها بملابســـكم وأحـــذيتكم المعروضة للبيع.

أحاول الهرب من كلام الرجل الساخر متأملاً ما حولي، تقع عيناي على أحد المقاهي الزاخرة بروادها أمام سينما راديو، أندهش لوجوده فيقول الرجل مفسراً:

– إنه مقهى سفنكس الذي صار في وقتكم محلاً للأحذية.

أستمر مع الرجل متأملاً الجمال الكائن حولي لأقف مشدوهاً أمام تمثال سليمان باشا بزيه العسكري الشرقي الجميل وقد توسط الميدان. يقول الرجل:

– أتعرفه؟

– بالتأكيد، انه الكولونيل سيف الذي اشتهر بعد إعلان إسلامه بسليمان باشا الفرنساوي.

أدور حول نفسي حالماً، ها هو عم مدبولي يقف بجلبابه خلف كتبه المعروضة في أحد أركان الميدان، كان الرجل ما زال بعد يفترش الأرض بكتبه المتعددة التي يجئ إليها الكتاب والمثقفون من كل حدب لشرائها منه، كان الرجل صديقاً للجميع يعرفهم واحداً بعد الآخر، أتأمله داخل كشكه البسيط العامر بالكتب، أبتسم له محيياً، يرد الرجل تحيتي، يبدو أنه لا يدري أنه سوف يعرفني جيداً في المستقبل، أتجه بعيني صوب جروبي، كان ما زال في بداياته الحيوية ورواده الكثيرين، أرى العديد من الكتّاب ذوي المشارب المختلفة يتجهون داخله إلا أن معظمهم كانوا من ذوي الرفاهية، الآخرون من الكتاب المتصعلكين لم تكن لديهم الجرأة الكافية لدخول مثل هذا المكان إلا في بعض الحالات النادرة حين تكون جيوبهم عامرة. يقول

الرجل الكهل:

- هذا المكان كما تراه الآن بمطعمه الواسع الجميل المليء بالأشجار الوارفة والزوايا الهادئة التي يجلس إليها المحبون، وكذلك البار الفخم الذي يتصدر المكان لم يعد له وجود في عصرك بعد أن اشتراه أحد المستثمرين المصريين القادمين من هجرة طويلة لشبه الجزيرة العربية بنية إبطال شرب الخمور.

أستمع إليه ساخراً من هؤلاء الموهومين الذين يريدون تسيير العالم تبعا لقناعاتهم، في جانب آخر أرى مكتبة جميلة زاخرة بالكتب. أقول هامسا:

- أليست هذه دار الشروق؟
- بالتأكيد لا، إنها مكتبة هاشيت، وهذا هو الفرع الثاني للفرع الرئيسي الكائن عند تقاطع شريف مع قصر النيل، إلا أنه بمرور الزمن وبدلاً من تحويلها إلى محل أحذية كما حدث لغيرها اشترتها دار الشروق ليتم تأسيسها بطرازها الإسلامي كما تراها في زمانكم.

كانت المكتبة ذات باب زجاجي جميل له إطار خشبي مغطى بستائر بيضاء وقد رُسم على الزجاج شعار المكتبة عبارة عن بومة رمز الحكمة، وكُتب تحته بالفرنسية والعربية "يوجد بالمكتبة أكبر مجموعة من الكتب والمجلات الحديثة". المكتبة هادئة تماماً، أتأملها من خلال زجاجها الشفاف لأرى الكتب المرتبة بشكل منسق دون اتخام، بينما تعلو جدرانها العديد

من اللوحات التشكيلية المختلفة، وقد رسم إمضاء صاحب كل لوحة في أحد جوانبها. كان الميدان هادئاً لا تشغله سوى حركة بعض المثقفين الذين يشغلونه ذهاباً وإياباً، على مقهى وبار ريش المصطخب بالحياة أرى نجيب محفوظ جالساً في أحد أركانه المطلة على الشارع وقد التف حوله العديد من المثقفين، أرى منهم جمال الغيطاني وخيري شلبي وغيرهم، إلا أن الرجل الكهل الذي يعرف نواياي جيداً يجذبني سريعاً حتى لا أختلط بهم. في ميدان الإسماعيلية الكبير الذي يشبه الحديقة الضخمة يقول لي الرجل:

– هذا ما تطلقون عليه ميدان التحرير في وقتكم، وهو أكبر ميادين المدينة البالغ مساحته عشرين فداناً.

أندهش للرقم الذي أطلقه الرجل، الميدان عبارة عن مستطيل غير مكتمل بينما يتصدره مبني المتحف المصري ببهائه الكائن منذ القدم، وقد تقدمته حديقة ضخمة بها من الأشجار والزهور النادرة ما لا يحصى، يشغل الضلع الثاني للمستطيل ثكنات قصر النيل التي كان يشغلها الجيش الإنجليزي، تقع عيناي على مقهى ايزافيتش ذي الشهرة الواسعة بروادة الكثيرين من المثقفين المختلفي المشارب، أعرف جيداً أن هذا المقهى القديم لم يعد له وجود في زمني بعد أن تحول إلى أكشاك لبيع السجائر وواجهات لبيع الخردوات وتصوير المستندات، يا لذلك الزمن الذي يقضي على كل شيئ، في أحد أركان الميدان تقع عيناي على مسجد ضخم فيقول لي الرجل

وكأنه ينتظر سؤالي:

- إنه جامع الشيخ العبيط الذي بُني على أنقاضه تماما مسجد عمر مكرم في وقتكم.

أسير في الميدان مفتوناً بما أراه من خضرة شاسعة تراها أينما اتجهت عيناك، أرى الرجل وقد بدأت تبدو على وجهه علامات الضيق. أسمعه يقول:

- ألم تشعر بالتعب من هذه الجولة الطويلة؟

أقول متمسكاً كالأطفال:

- ليس بعد، ما زال أمامنا الكثير من الوقت والأماكن التي أود رؤيتها.
- إنني لم أطلب منك إنهاء رحلتك يا ولدي، كل ما هنالك أني أرغب في قسط من الراحة نستكمل بعده رحلتك الأثيرة تلك.

أطيع الرجل صامتاً. أقول له:

- لم لا نحتسي كأسين في اكسلسيور؟

يوافقني الرجل مبتسماً، كنت قد أشرت عليه باكسلسيور بخبث حتى أمرّ مرة أخرى من ميدان إسماعيل باشا فأمتع بصري بما فيه من متعة بصرية، كان مقهى ريش قد لفظ رواده ليأتي مكانهم رواد آخرون في دائرة لا تنتهي، نمر من أمام سينما راديو التي أغلقت أبوابها في زمني والكائن أمامها مقهى سفنكس، أندهش لرؤية نجيب محفوظ وحوارييه جالسين على المقهى، منذ فترة وجيزة رأيتهم على ريش، هل كان يخيل لي أم أن هذا المكان له قانونه الخاص الذي يتغير بتغير الوقت كما

سبق أن قالت لينا؟ يجذبني رفيقي متعللاً بآلامه التي تداهمه في مفاصله، ندفع باب اكسلسيور الزجاجي فينبعث منـــه صـــرير خافت عند فتحه، هدوء آسر يعبق المكان حتى لكأنك انتقلت إلى عالم آخر تماماً داخله، أتأمله بواجهاته الزجاجية اللامعة بألقهـــا الدائم، كان المكان ذو أناقة خاصة تجتذبك بينما تتوسطه نافورة جميلة ينبعث منها خرير الماء المتواصل في متوالية هادئة لا بد أن تجعل أعصابك المشدودة تسترخي بينما تحيطهـــا أصـــص صغيرة زرعت فيها نباتات ظل جميلة، تحمل الجدران في أحد أركانها لوحة نحاسية حُفرت عليها عبارة "محظور تقديم الخمور لأقل من 21 سنة ولا تقدم قبل الساعة الحادية عشر صـــباحاً".
أنتحي وصاحبي إحدى الطاولات المطلة على شـــارع ســـليمان باشا، أتأمل الشارع من خلف الواجهة الزجاجية اللامعة، يأتينـــا النادل ذو الملبس الأنيق منحنيا في شئ من المسرحية المهذبـــة، يطلب رفيقي كأسين من النبيذ الأحمر المعتق فأوافقه على طلبه، كنت في حاجة قصوى إلى مثل هذا النبيذ الآن، أرشـــفه هادئـــاً رشفات متتابعة بينما ذهني مشغولاً في ذلك الزخم العتيق الـــذي رأيته منذ بضع ساعات. أسائل الرجل هادئاً:

– لكن أين كل هذه المكتبات العامرة التي كانت تزخر بها وسط البلد؟

– أغلبها تحول إلى محلات لبيع الأحذية والملابس بالإضافة إلى المطاعم ذات الطابع الأمريكي.

أنظر للرجل خجلاً منه، يا للوقاحة، كل هذا الجمال يـــذوي هكذا بكل بساطة؟ أتناسى وجوده تماماً متأملاً إحـــدى الفتيـــات

السائرة خلف واجهتي الزجاجية، في عينيها ألق ذو تناقض لوني أخاذ يتشابه إلى حد بعيد مع عينيّ لينا. أقول للرجل:

- كيف سنواصل رحلتنا؟

الصمت الطويل الذي لاقاه سؤالي للرجل جعلني ألتفت نحوه، إلا أن صدمة قصوى جعلتني أرتد في مكاني، أنظر لطاولتي الفارغة إلا منّي مندهشاً، لم يكن للرجل أثر على الإطلاق، هل هذا ممكن؟ لقد كان يتحدث معي للتوّ، أيكون قد هرب منّي متلصصاً؟ ولكن متى فعل ذلك وما زال رجع حديثه يتردد في أذني؟ أتأمل طاولتي الخاوية إلا من كأسي الوحيد، وأين ذهب كأسه؟ أيكون قد أخذه خارجاً؟ بالتأكيد كنت سأراه إذا ما خرج من خلال الواجهات الزجاجية المميزة للمكان، أشير للنادل متلهفا:

- أين ذلك الرجل الذي كان يشاركني الطاولة؟

يقول مبتسماً:

- أي رجل سيدي؟

بسمته المرسومة على وجهه وكأنها خلقت معه منذ الأزل تزيدني غيظاً، يرتفع صوتي قليلاً مما جعل الأنظار تتجه إليّ:

- ذلك الرجل الذي دخل معي، لقد كان يحدثني منذ برهات.

يرد الرجل بتأدب:

- لقد دخلت وحدك سيدي منذ ما يقرب من الساعة، ولم يكن معك أحد قط، إنك تجلس وحدك منذ دخلت.

أقول محاولاً الهدوء مشيراً إلى كأسي:

- أليس هذا نبيذ أحمر معتقا؟

– بالتأكيد سيدي، هل فيه شيئ لا يروقك؟
– ألم يطلبه منك الرجل الذي كان يرافقني؟

يقول الرجل متردداً، وقد ظنني أهـذي أو أن الخمـر قـد أثملتني:

– عفواً سيدي، إنك أنت الذي طلبته ولم يكن يرافقكِ أحد.

يقولها الرجل تاركاً إياي مبتعداً بينما رأسه تتلفـت نحـوي بين الفينة والأخرى، لماذا ينظر إليّ هكذا وكأنني معتوه؟ ذلـك الوقح يذكرني بالآخر الذي كان في مقهى متاتيا، أتأمل المكـان حولي، كانت الأشياء تتشكل، تتحول، تنبثق لتأخذ بعداً آخر غير ذلك الذي كانت عليه منذ قليل، ها هي النافورة البديعـة التـي تتوسط المكان تذبل منزوية وكأنها إحدى النباتـات التـي فـي طريقها للزوال، تختفي النافورة تماماً بعد برهات، تتبدل النباتات الظلية فجأة إلى زهور ونباتات مصنوعة من البلاسـتيك، يـا للغرابة، شارع سليمان باشا يأخذ شكلاً مختلفاً هو الآخـر كـي يزدحم بالسيارات ذات الماركات الحديثة في ازدحام مـروري خانق. هل غادر ذلك الزمن بهذه البساطة؟ كانت الأشياء تأخـذ بعدها الخاص بها بينما عيناي تتلفتان حولي حائرتين محاولتين التمسك بما يزول حولها بينمـا رأسـي يضـج بالعديـد مـن التساؤلات القاسية.

اكسلسيور

لم أكن أدري أن لينا لها مثل هذا الحضـــور إلا فـــي تلـــك اللحظة التي انفلتت فيها من خلال الباب الزجاجي دافعـــة إيـــاه بحنو كي ينفلت منه صوت واهن لا تكاد أن تسمع لـــه شـــيئاً، لوجودها المادي في المكان عبق أثير وكأنها ذات روائح خاصة تميزها، ينتشر شذى عطرها السري في أرجاء المكان فـــتملأه بهجة، أتنسم شذاها بعمق فاتحاً صدري عن آخره بينما أراهـــا تخطو على الأرض قادمة نحوي، بقدر البهجة التـــي ملأتنـــي لمرآها إلا أنني غرقت في تساؤلاتي، أهي الثامنة مســـاء الآن؟ أنظر في ساعتي لأتأكد من الوقت، أيكون الرجل قد اختفى لأنه علم بموعدي مع لينا؟ ولكنني لم أشعر بالوقت على الإطـــلاق، أفيق من تأملاتي الشاردة. تقول وقد أخذت مقعدها المقابل لي:

– هل تأخرت عليك؟

– على الإطلاق.

– منذ متي وأنت تجلس هنا؟

– لست أدري.

أقولها حائراً فتنظر إليّ مندهشة. تصمت فترة لتقول:

– هل هناك ما يسوؤك؟

ساخراً:

– من الأفضل صياغة سؤالك هكذا.. هل هناك مـــا يرضـــيك حولك؟

تتنهد زافرة:

- يا لتلك الحالة المسيطرة عليك من عدم الرضا.. ألا يمكنك التخلي عنها بعض الوقت؟
- وإذا فعلت فماذا يبقى لي؟

تتجاهل تساؤلي عن عمد مشيرة للنادل الذي ينحني لها في احترام بينما عيناه مركزتان عليّ، يبدو أنه متعجب من كون هذا الملاك يشاركني طاولتي بعد ذلك الحوار الذي دار بيننا منذ دقائق. تطلب زجاجة بيرة لتقول لي:

- هل تابعت مؤتمر القمة العربي اليوم المنعقد بشأن العراق؟

لا مبالياً:

- لم أفعل، وما الفائدة؟
- لم هذا التحامل؟
- لست بمتحامل، ما هو الجديد الذي يقدمونه أو يفعلونه منذ هزيمة 1948؟

شاردة:

- حديثك فيه شئ من الصدق، انه نفس الموقف الذي حدث اليوم.

بقرف:

- هذا لأنني أستقرئ الواقع والتاريخ بحيادية تامة.

أتناول كأسي لأجرعه دفعة واحدة، أتأملها بينما ترشف كأسها وقد تركت شفتيها الممتلئتين ذات اللون القرمزي لونهما القاني على طرف كأسها، أرغب رغبة قصوى في تقبيلها.

أقول لها:

- اطلبي من ذلك النادل زجاجة أخرى من البيرة.

مندهشة:

- ولم لا تطلبها أنت؟

- يظنني مجنوناً.

تنطلق ضحكتها المجلجلة الرائقة ذات الانسحاب البطيء لتملأ المكان بهجة، يلتفت إلينا الآخرون متأملين إياها في عالمها المادي الحر، يترجرج نهداها بانسيابية ساحرة مع ضحكتها المنطلقة فيزيداني رغبة، أتأملهما في حركتهما الصاخبة وقد تحررا من أسر سوتيانها الضيق الذي كان يخنقهما، تطلب من النادل زجاجة بيرة لتقول باسمة:

- يبدو أنك قد أتيت شيئاً من أفعالك الصبيانية فظنك مجنوناً.

أتأمل عينيها الواسعتين بذلك التضاد الحاد بين الأبيض والأسود فأفتتن بهما، كانت تعرف ما لهما من سحر غامض عليّ فتتركني أتأملهما في نعاسهما الراغب الداعي. أقول بعد فترة:

- ما الذي حدث اليوم في ذلك المؤتمر؟

تقول وقد استعادت جديتها:

- ظاهرياً كما قد يبدو فقد انتهت القمة بمجموعة من القرارات الفاعلة.

مستزيداً:

- وكما يبدو لنا من خلال استقراء العمق؟

أراها تطرقع بإصبعيها في الهواء دلالة أنه لا شيء يذكر يستحق التعليق، إلا أنها تقول مستطردة:

- كالعادة.. اختلف العديدون مع بعضهم؛ فممثل دولة الكويت بدا وكأنه عدو لا شقيق؛ فجاء من أجل زيادة النار استعاراً ومحاولة تأليب الجميع على النظام العراقي وكأنه يرحب بالتحالف الأنجلو أمريكي ضد العراق، والأغرب قوله أن العراق ليست مُلتزمة بما تم الاتفاق عليه بعد حرب الخليج الثانية، وأنهم يهينون دولته في وسائل إعلامهم.

أذكر البعلي بوجهه وقد احمرّ بينما الكلمات تنطلق من فمه بلا تنظيم:

- لست أدري لم تدافع عن صدام بمثل هذا الشكل الغبي رغم عدم رؤيتك لأسلوب حكمه، اسألني أنا إذا لم تكن تعرف، أنا الذي عشت هناك عدة سنوات في ظل نظام مخابراتي قاهر تخشى فيه من مجرد الالتفات أو الحديث إلى نفسك وإلا تم اختطافك إلى جهة غير معلومة كي يتم التمثيل بك أو اعدامك، إن صوره في كل زاوية تراها أينما اتجهت عيناك ليكون رقيباً عليك في كل أوقاتك.

أقول مقاطعاً:

- أعرف كل هذا، وأعرف أيضاً ما يحدث للأكراد على يديه، بل أعرف أن جميع أوطاننا العربية تعيش في هذا الذل والهوان من قبل حكامها وكأنه قدّر علينا ذلك، ولكني لا أدافع عنه مثلما يخيل إليك، بل أنا رافض أن تتدخل دولة

أخرى خارجية وبعيدة عنّا مثل أمريكا أو بريطانيا كي تصحح الأوضاع القائمة عندنا، فالتغيير لا بد أن يكون بإرادتنا نحن.

أعود إلى لينا لأقول مبتسماً:

– ما حدث من ممثل الكويت شيء طبيعي.

تقول مكملة:

– إلا أن ذلك الذي حدث من الكويت لا يعد شيئاً في مقابل ذلك الخلاف الذي وقع بين القذافي والعاهل السعودي.

أضحك قائلاً:

– القذافي، ذلك الرجل أحبه كثيراً لا لمواقفه ولكن لأنه يمتلك كاريزم خاص يجعل كل من يشاهده أو يستمع إليه يحبه منجذباً إليه.. وما الجديد الذي صدر منه اليوم؟

– تحدث هو الآخر عن حرب الخليج الثانية، ولكن بشكل أكثر عقلانية؛ فذكر أنه أجرى العديد من الاتصالات مع العاهل السعودي إبان الحرب الثانية لمحاولة لمّ الشمل والحيلولة دون وقوع الحرب على العراق، ثم آخذ العاهل السعودي على موقفه بالسماح للقوات المتحالفة كي تتخذ من أرضه ركيزة أساسية للانطلاق في حربها، بل ولجوءهم للولايات المتحدة كي تحميهم من بطش صدام بدلاً من الالتجاء إلى الأسرة العربية.

– رغم عدم موافقتي لمواقف القذافي المندفعة إلا أنني أراه قد غرر به سياسياً من قبل عبد الناصر وسياساته القومية ذات الطابع الوهمي، فالرجل هنا يتعامل وكأنما الأعمال بالنيات

على الرغم من أنها ليست هكذا في عالم السياسة ذي الطرق الدبلوماسية الملتوية.

تقول ضاحكة:

– ليتك رأيتهم اليوم وهم يتشاجرون كالأطفال في إحدى الحواري الضيقة، فهذا يكيل الاتهامات وذاك يسب الآخر، إلا أن ذكاء القذافي جعله يلتزم بعضاً من حدود اللياقة بعدم الرد تاركاً الأمر للرئيس كي ينوب عنه. أتأمل الشارع الخارجي وقد مر من أمامي أحد الفتيان مطوقاً فتاته. أتأملهما لأقول ساخراً:

– بعد ذلك تحاولين توجيه انتقادك لي بأنه ليس هناك ما يرضيني حولي؟

– على الأقل إذا لم يكن هناك ما يرضيك فهناك ذلك الموقف المشرف للرئيس بشار الأسد الذي كان يتحدث وكأنه قد عرك الحياة بكل خفاياها حتى لكأنك تظنه عاش ألف عام.

تقول منبهرة:

– يا لذلك الرجل في مواقفه الثابتة ذات الرؤية المستقبلية الواضحة، انك تراه وهو يتحدث بلباقة وثقة وتنظيم متكامل في الرؤية والفكر فيحدوك الأمل بأنه إذا كان الزعماء العرب هكذا مثله فلا بد سيكونون ذات يوم شيئا ذا شأن.

– سيدتي، إن الرجل على قدر غير هين من الثقافة تجعله بمثل هذا التنظيم والرؤية العميقة لخفايا الأمور.. صدقيني إنني كلما رأيته يتحدث كلما زاد إعجابي به.

أقهقه ضاحكاً وقد انفلتت منّى ضحكة دون رغبتي، تنظر لينا متسائلة.

أقول مقاوماً رغبتي الشديدة في الضحك:

- عذراً، ولكني أتخيلهم دائماً حينما يستمعون إليه فأراهم مجموعة من الطلبة الفاشلين الذين يحاول معلمهم جاهداً كي يجعل منهم رجالاً حقيقيين فيذهب مجهوده قبض الريح.

تنطلق ضحكتها المجلجلة فأحاول التعلق بأذيالها ذات الانسحاب الأخاذ إلا أن عدم ماديتها يعييني حيلة، تقول وقد ارتسمت على ملامحها الجميلة معالم الحزن:

- يا لهذا الوطن المهان.

أرد غاضباً:

- أي وطن هذا الذي تتحسرين عليه وأي وطنية تلك؟ لينا، لست أدري حقيقة كيف يخرج مثل هذا الاعتقاد الأحمق منك على الرغم من ثقافتك الواسعة وإحاطتك بصغائر الأمور وكبيرها.

مندهشة:

- هل صار فرضاً على المثقفين التخلي عن وطنيتهم؟
- أي وطنية تلك التي ما زلت تتمسكين بأذيالها؟ أترين حولك ما يدعوك لذلك؟
- لماذا تحاول دائماً الربط بين الوطن والسلطة؟
- لأن الوطن هو الذي أتى بتلك السلطة وهو الذي أعطاها الحق في كل ما تفعله.. أعتقد أنه لو كان كلامك صحيحاً لما انتحرت أروى صالح بعد أن تملكها اليأس تماماً من تغيير أو فعل أي شئ على الإطلاق، وهو ذات السبب الذي جعل

مخرجاً عظيماً كان مناضلاً من مناضلي الســبعينيات مثــل رضوان الكاشف يترك تلك الحركة الواهمة التي لا تغني ولا تثمن من جوع ليتجه إلى السينما كي يصب فيها همه.

يخيم علينا الصمت بطنينه القاسي الــذي يكــاد أن يمــزق طبلتيّ أذنينا، ننتبه على صوت الباب الزجاجي وقد دفعه أحدهم بقوة ليرتد مغلقا مرة أخرى، خيّل إليّ أن الباب قد تحطم ليصير شظايا صغيرة من أثر الدفعة، ننظر باتجاه ذلك الداخل المتجهم وقد انسحب غضبنا الذي كان في طريقه إلى الــزوال لترتســم على ملامحنا آثار انقباض مندهش، ما لهذا الرجل العجيب ذي الأطوار العجيبة؟ كان الرجل الداخل ذو لحيــة كثــة، حليــق الشارب بينما يرتدي بدلة كاملة لا تتناسب على الإطــلاق مــع ملامحه المتجهمة ذات الحاجبين المقطبين، خيّل إليّ أنه مقــدم على شجار ما بهيئته المثيرة للانقباض، كان يسحب فــي يــده امرأة يعلوها السواد من رأسها حتى أخمص قــدميها، أحــاول رؤية عينيّ المرأة إلا أن الوشاح الأسود الذي ترتديه يغطي كل جزء منها حتى أنه لم يكن فيها ما يرى، أبادل لينــا النظــرات الداهشة، لم نكن نصدق ما نراه، حتى هذا المكان؟ أقول هامساً:

– ما هذا؟

متحيرة:

– لست أدري، منذ متي يأتي هؤلاء النــاس إلــى مثــل هــذه الأماكن؟

ساخراً:

– يبدو أنهم يحاولون بشتى الطرق إزاحتنا من جميــع أمــاكن تجمعنا.

تقول لينا بينما عيناها تتابعهما:

- أنظر متأملاً.. ألا ترى أن وجودهم في مثل هذا الجو يكـــاد يكون شاذاً؟

بعقلانية:

- الشذوذ ليس في ارتيادهم مثل هذه الأماكن، فاكسلسيور لـــيس مجرد بار كما تعرفين، بل هو مطعم أيضاً، ولكـــن الشـــذوذ الحقيقي الذي أراه، هو مناقضة سلوك هـــؤلاء النــــاس مـــع معتقداتهم.
- ماذا تقصد؟
- تأملي المكان حولك جيداً، فباستثناء هذين اللذين دخـــلا الآن ستجدين العديد من الفتيات اللاتي يغطين شـــعورهن تحـــت مسمى الحجاب إلا أنه بالرغم من ذلك فـــان ملابســـهن ذات السراويل الضيقة والبلوزات الأكثر ضيقا تتناقض مـــع مـــا يرتدينه على رؤوسهن، بل والأدهى أنك ستلاحظين الغالبية العظمى منهن يحرصن على إظهار خصلة ما من شعورهن مصبوغة بدرجات الأصفر المتفاوتة.

تتأمل لينا المكان حولها للتأكد من صدق كلامـــي. تقـــول بهدوء:

- أتصدق أني لم ألحظ هذا التناقض من قبل؟
- هذا لأنك لا تحاولين النظر إلى الأشياء بعمق كـــي تحـــاولي ردها إلى أصولها، فأنا لا أرفض تـــدينهم ولكنـــي أرفـــض التمسح بأهداب الدين من أجل المصالح الشخصية، فمثلا تلك

التي ترتدي البنطال الضيق والبلوزة الضيقة لماذا تحاول خنق نفسها بالحجاب على الرغم من أن سلوكها ومنظرها يدلان بصدق على عدم اقتناعها به؟

أرى عينيّ لينا تنظران نحوي منتظرة جوابي على تساؤلي فأقول:

– المبرر الوحيد عندي هو أن جهامة الخطاب الديني الآخذ في التصاعد هو السبب الرئيسي في مثل هذا المسلك، فهؤلاء الفتيات يخشين المجتمع المتبدل يوماً بعد آخر، بل يخشين سلطة الآباء الذين يرون في الحجاب عفة وسلوك قويم على الرغم من فعل الفتيات لما يرغبنه سواء به أو بدونه.

تقول ساخرة:

– لعل هذا أهون شأناً مما نراه في المصايف كل عام.

– هذا الذي ترينه في المصيف شأن آخر، فما يثير دهشتي الفعلية هو كيف يتأتى لهؤلاء الناس الرغبة في الذهاب هناك على الرغم من معرفتهم الجيدة بأن مثل هذه الأماكن لا تخلو من العري القبيح على حد قولهم، بل والأدهى من ذلك حينما ترين إحدى تلك النساء وقد هبطت بملابسها الكاملة أمام الجميع في مياه البحر كي تصعد وقد التصقت ملابسها بكل ثنايا جسدها وكأنها عارية تماماً.

– يا لهذا التظاهر الكاذب.

– دعك من هذا لينا، إن ما يثير دهشتي الفعلية هو ما نراه اليوم من رواج عجيب للكتب الدينية وكأنما الناس كلها قد صارت

متدينة، إلا أنك إذا نظرت للأمر بشكل أكثر عمقاً لوجدت أن التدين اليوم قد صار ظاهرياً وكأنه مجرد موضة جديدة يحاول الجميع تقليدها دون النظر إلى فحواها.

تقول شاردة:

– أذكر ذات يوم وقد ركبت الباص متجهة إليك، كان السائق يستمع إلى أصالة التي يتعالى صوتها الملائكي هادئاً في صوت خفيض لا يكاد يسمعه سواه إلا أن أحد الركاب طلب منه أن يطفئ الكاسيت كي يعطيه أحد الشرائط المسجل عليها إحدى تلك الخطب التي يسمعونها فما أن رفض السائق إلا وثار ذلك الرجل ذو اللحية ليطلب منه إغلاق الكاسيت تماماً.

مبتسماً:

– ما الجديد في ذلك؟

تتناول كأسها قلقة وكأنما هناك شئ ماً، أتأمل عينيها فأذوب فيها رغبة، تستقر يدي برغبة يقينية على يدها المكتنزة ذات الأصابع المسحوبة بهدوء فتنظر نحوي متسائلة. أقول بعشق:

– شوقي إليك متزايد.

بفتور:

– لست في حالة تسمح الآن بتبادل العشق.

تقولها وقد سحبت يدها الكائنة من تحت يدي. أهمس متسائلاً:

– أهناك ما يسوؤك؟

– تلك المرأة المتشحة بالسواد تكاد أن تخنقني.

- ماذا بها؟ أأهانتك في شئ؟
غاضبة:
- بالطبع تهينني، حتى أنني أشعر بإهانتها توجه إليّ كالصفعة.
ضاحكاً:
- أتهذين؟
- لست أهذي أيها المتفلسف، أما تعي معنى ما ترتديـــه تلـــك المرأة؟ إنه دليل قاطع على عدم احترامها لكونها امرأة.
- كيف ذلك؟
- المعنى المباشر الذي يصل إلى ذهني من طريقة ملبسها هذه أنها تنظر لنفسها وغيرها من النساء بشيء غير قليـــل مـــن الدونية.
- زيديني فهما أيتها الخلاسية الفاتنة.
- ليس هذا وقت المزاح.. إنها حينما تفعل ذلك فهي لا ترى في نفسها وفي أبناء جنسها سوي أنها مجرد أداة لتفريغ رغبات الرجل.. أي أنها ليست سوي شئ للمتعة فقط يتناولها الرجل وقتما شاء ويعرض عنها حينما يزهدها دون احترام لكيانهـــا كأنثى ذات ثقافة وفكر خاص.
مفكراً بعمق:
- أتدرين أني لم أنتبه لتلك الإهانة سوى الآن؟
- إنها لا ترى في ذاتها إلا كونها مجرد عورة مثيـــرة لغرائـــز الرجل ولا بد من سترها حتى لا تثير فيه حيوانيته الكامنـــة، وكأنما الدين قد تم اختزاله بالكامل في ذلك الانفجار الجنسي.

أصمت متأملاً كلام لينا الذي بدا مقنعاً إلى حد بعيد، هل من المعقول أن تنظر المرأة لذاتها مثل هذه النظرة المتدنية؟ أشـــعر برغبة حمقاء في إحراق الجميع من حولي، أحاول الخروج من هذا الشعور الذي بدأ يسيطر عليّ بالحديث مع لينا، ولكن مـــاذا أقول لها وقد نفذت حصيلتي اللغوية تماماً فلم أعد أعرف مـــاذا أقول؟ أبحث في رأسي المصطخب بالعديد من المتناقضات عن موضوع ما يصلح للحديث. أقول حائراً:

- كيف كان يومك في العمل؟

بحيادية:

- كالعادة.. لا جديد.

تبدو وكأنها لا ترغب في الحديث، أجرع كأسي عن آخـــره لأقول:

- لقد تشاجرت مع رئيس التحرير اليوم.

باهتمام بدأ يبدو على ملامحها لتتقلص ملامح الفتور:

- لم؟

- قدمت مقالي الجديد له اليوم عن فيلم "النوم في العسل" إلا أنه استدعاني ليطلب منّي تخفيف حدة النقد السياسي المضـــمن فيه.

- ثم؟

- لا شئ.. حاولت مناقشته في فنيات العمل وتوضيح أن الفيلم قال ما قلته أنا تماماً، وإن كان بشكل غير مباشر إلا أنه لـــم يحاول أن يفهم.

- ما زلت تصر على انتقاد السياسات المتهرئة من حولك.
كمن ينكر تهمة:
- أنا لم ألجأ إلى ذلك عن عمد؛ ولكن موضوع الفيلم هو الذي دفعني إلى ذلك.. فما كان منّي بعد إصراره على غبائه المحكم إلا أن مزقتها لألقيها في وجهه.

تنطلق ضحكتها الصافية لتملأ أركان المكان، أشعر وكأنها تعيد الحياة إلى العديد من الأشياء الجميلة التي انزوت منذ عهد بعيد، أتعلق بأذيال ضحكتها وقد بدا لي في قسماتها المرحة وجه الله فأمتلئ بهجة. تقول بعد فترة تأمل:

- أيها المجنون، كيف تفعل ذلك؟
- ماذا كنت ستفعلين في مثل ذلك الموقف الغبي؟
تحاول الحديث حائرة إلا أنها تنظر لي وقد أعيتها الحيلة لتقول:
- لا شئ.. مثلك تماماً.
- بالتأكيد مثلي.. فليس هناك من يحترم كلمته التي يكتبها لا يقدم على مثل ما أقدمت عليه.
تقول شاردة:
- ها هو حبل آخر ينقطع بينك وبين الآخرين.
هازئاً:
- بل قولي ها هي جريدة جديدة أخسرها وأخسر التعامل معها.
- ماذا؟ ألم تكن مقيدا في تلك الجريدة؟
أضحك مجلجلاً:
- لينا.. ألا تعرفين أني غير مرتبط بأي جريدة على الإطلاق؟

- لم أكن أظن ذلك.
- عزيزتي، إن عملي مع جميع هذه الـدوريات يعتمـد علـى المكافأة ليس إلا.
- لم يكون ذلك بالرغم من أن قدرك ليس بهين؟
- تلك حقيقة أعرفها، ولكني أنا الذي أرفض القيود.
- أية قيود تلك؟
- قيود الوظيفة؛ فمعنى أن أكون موظفا في جريدة يعني بالنسبة لي أن ألتزم بمواعيد خاصة للتواجد فيها، هذا فضلاً عن أن رئيس التحرير وقتها سيكون له الحق في مطالبتي بالجديـد مما أكتبه، ولا بد أن أسلم مادتي في موعدها المحدد لها، وأنا لا أحب ذلك؛ فأنا أكتب وقتما يحلو لي وأترك كتابتي وقتمـا أشاء.. لينا، الكتابة ليست مجرد وظيفة، بل هي حياة خاصة لها قانونها الخاص...

كان كلامي مقنعاً لها إلى حد ما فقالت متسائلة:
- ماذا ستفعل معه؟
- لا شيئ، فليذهب إلى الجحيم هو وجريدته.
- إنك لا تعرف قدر نفسك.

مؤكداً:
- بل لأنني أعرف قدر نفسي وقدر ما أكتبه فأنـا أفعـل مـا يتراءى لي من قناعات.

ترتسم على محياها علامات العشق الجميل لتقول:
- كم أحبك.

يا لتلك المرأة، لماذا تصر دائماً على ذلك الحب بالرغم من أني لم أقل لها يوما كلمة حب واحدة؟ أتحاول محاصرتي بحبها؟ إنني لم أحاول خداعها من قبل، أذكر ذلك اليوم الذي تشاجرنا فيه لأنني صارحتها بعدم حبي لها، ولكن الأمر كله مجرد حاجة ماسة لها في كل أوقاتي، أذكر أيضاً أنها في ذلك اليوم كالت لي الاتهامات بالأنانية وتبلد المشاعر، أذكر أن البعلي قد تدخل للإصلاح بيننا وأنها قد عادت إلى صفوها القديم بعد عدة محاولات فاشلة، لم أجرؤ على تعكير صفو لحظتها الآنية فالتزمت الصمت، كنت قد فرغت من احتساء زجاجتي بالكامل فطلبت منها أن تأمر النادل بزجاجة جديدة، تقول بعد أن جاءت الزجاجة بينما عيناها تتابعان النادل الذي ينظر إليّ شذراً:

– ماذا فعلت مع هذا الرجل كي يظنك مجنوناً هكذا؟

لم أكن أدري ماذا أقول لها، شملتني الحيرة فألجمت لساني عن النطق، أأقول لها عن رحلتي في عمق الزمان والمكان؟ تلك الرحلة التي ما برحت لا تفارق مخيلتي المفتونة بها؟ كانت كحلم طويل جميل طالما تقت للحياة فيه إلا أنه ما أن تراءى لي إلا وخبا وكأنه لم يكن، يتراءى لي الرجل الكهل الذي كان يشبهني إلى حد بعيد، أحاول الإشارة له، الإتيان بأية لفتة تثير انتباهه نحوي، كان يسير على الطوار المقابل غارقاً في عالمه الخاص، لا بد أنه في انتظاري الآن، أرى رأسه المنكس أرضاً وكأنه يبحث عن شيئ ما قد فقده لتوّه. أويكون حزيناً لفراقي؟ ولكنه هو الذي بدأ تلك الوحشة التي تنشب بأظافرها بيننا، لم

أطلب منه الانسحاب المفاجئ الذي كاد أن يصيبني بـــالجنون، أدقق النظر في خطواته المتثاقلة فيبدو لي وكأنه قد هرم أو أنه قد مرت عليه قرون مديدة في مشيته هذه، أحـــاول مناداتـــه إلا أنني ما كدت أن أفعل إلا ورأيته قد بدأ يتماهى متشكلاً إلى اللا شيئ. أدعك عينيّ بقوة ضاغطاً إياهما، أغمضهما مستفيقاً ظاناً أن الأمر مجرد وهم عظيم، إلا أن الحقيقـــة الراســـخة علـــى صدري كانت واضحة جلية؛ فالرجل الذي كان يسير أمامي الآن غارقاً في تأملاته قد اختفى تماماً وكأنه لم يكن، تجول عينـــاي الهائمتان في عينيّ لينا تلك اللتان ما زالتا في انتظـــار إجـــابتي على تساؤلها، أسبح في عوالم عينيها الأخاذتين فأشعر بذاتي وقد شارفت على الغرق فيهما، أراها وقد أسبلت جفنيها وكأنها على وشك السبات، هذه المرأة متيمة بي لا شك في هذا، لا أنكر أنني أتوق إليها ليل نهار، ولكني لست أدري حقيقة كنه هـــذا التـــوق الشديد لها، أروي لها ما كان اليوم مع ذلك الكهل العجيب الذي اختفى في ظروف غامضة، كنت أشعرن وكأنني غـــارق فـــي تأملاتي بينما لساني يلهج بالذكريات المضببة التي عشتها اليوم، يهيأ لي أني أحادث ذاتي وقد انتفى اكسلسيور تماماً من محيطي الخاص خافياً معه رواده العديدين ولينا وكل شئ. أذكـــر لهـــا الأتوبيس أبو دورين الذي جاء به الإنجليز وقد شملتني بهجـــة غريبة وكأنه قد تمثل أمامي، أرتعد غضباً حينما أذكر لها ذلـــك الإنجليزي الوقح الذي تعامل مع داعرة كلوت بك بكل صـــفاقة، ما أن وصلت بذكرياتي ذات البهجة الزمنية إلى اختفاء الرجـــل

في اكسلسيور إلا ورأيت عينيها ارتسمتا بعلامات الدهشة، كانت تنظر لي نظرة تكاد أن تتطابق تماماً مع نظرتيّ النادلين في مقهى متاتيا واكسلسيور، حتى أنت يا لينا؟ ما لهذه المرأة تنظر إليّ هكذا مأخوذة وكأنني مجنون فعلي؟ انتبهت الآن أن نظرتها كانت تتشكل بالاندهاش غير المصدق كلما استرسلت أكثر في رواياتي التي ما أن انتهيت منها إلا وقد استقرت عيناها على هذه النظرة العجيبة، يهبط علينا الصمت الثقيل الذي أشعره شديد الوطأة على صدري المختنق، أراها تبحث عن علبة سجائرها وقد بدا عليها الارتباك، حينما تجوس يدها باحثة بلا أمل داخل حقيبتها الصغيرة التي تتناسب إلى حد بعيد مع رقة جسدها أراها ترفعها لتفرغ محتوياتها بالكامل على الطاولة، أتأملها بينما تضع السيجارة بين شفتيها بينما تشعلها بقداحتها مرتبكة، تقول بعد فترة:

– أأنت ثمل؟

يا الله، حتى أنت لا تصدقينني؟ إذن فذلك النادل له الكثير من العذر وقد ظنني معتوهاً ما دمت أنت الأكثر قرباً إلى نفسي غير مقتنعة برواياتي التي عشتها بكل ما فيها من حياة. أتساءل مندهشاً:

– أتكذبينني؟

حائرة:

– لست أكذبك، ولكن روايتك هذه لا عقلانية على الإطلاق.

– معنى هذا أني قد اختلقتها؟

- ليس بهذا المعنى تماما.. قد يكون شجارك مع رئيس التحرير متضامناً مع احتسائك للكثير من الخمر أديا بك إلى توهم تلك القصة العجيبة.
- معنى كلامك هذا أنني أهذي.
- صدقني، لست أحاول توجيه أية إهانات لك أو التشكيك في مدى يقظتك، ولكن ألا يمكن أن تكون قد قرأت كل هذا في أحد كتب التاريخ، ولأن توقك الشديد إلى الجمال الذي كان يسيطر عليك فلقد تراءى لك كل هذا؟

غاضباً:

- أنت على دراية تامة أنني لا أميل إلى قراءة التاريخ، كما أنك على علم تام بأنني لست مجنوناً.

تقول وقد ارتفع صوتها:

- لماذا تحاول استفزازي باعتقادك أنني أتهمك بالجنون؟

ارتفاع صوتها قليلاً جعل العديدين يوجهون نظراتهم نحونا، تنتبه لما حدث فتحاول اخفاض صوتها قائلة:

- آسفة.
- إذن فالام ترمين؟
- لست أدري، ولكن حكايتك تلك لا يمكن أن يقتنع أحداً اللهم إلا إذا كان الأمر مجرد حلم من أحلام اليقظة قد تراءى لك فعشت فيه حتى النخاع.. ولا تحاول معاودة اتهامك لي؛ فمثل هذه الأحلام تتراءى لنا جميعاً.

لم أقتنع بحديثها المتشكك؛ فكل ما لمسته اليوم كان حياة كاملة حقيقية إلا أني شعرت برغبة قاهرة في إنهاء الحديث

بشأن ذلك الأمر فقلت لها مخادعاً:

- ربما، ولم لا؟

تتلامس قدمانا أسفل الطاولة فأشعر بدبيب الرغبة قد بدأ يسري في جسدي، أصعد بطرف قدمي على ساقها مقترباً من فخذها الممتلئ، تبتسم وقد اكتسب وجهها حمرة قانية، تقول وقد بدا في صوتها ارتعاش الرغبة:

- حتى هنا؟

- إنني أرغبك في كل مكان.

تقول وقد شعرت بمقدمة قدمي التي استقرت بين فخذيها مداعبة:

- كف عما تفعله أيها المجنون.. لا تلفت إلينا الأنظار.

- إذن فهيا بنا.

توافقني إلا أنها تطلب منّي مرافقتها حتى دار الكتاب الفرنسي الكائن في عمارة الايموبيليا لشراء كتاب، أوافقها على مضض، نخرج وقد تدثرنا ببعضنا، يدها التي تطوق خصري تكاد أن تعتصرني بينما ذراعي تطوق كتفيها المنسابين بهدوء، أتأمل شارع سليمان باشا بواجهات مبانيه العتيقة وقد شوهت تماما فلم يعد أحد ما يلمح ذلك الجمال القديم، يتلقفنا الهواء البارد إلا أنه يذوب متكسراً على وجهينا المصطخبين بحمرة الخمر القانية، تحاول سلوك شارع عدلي اختصاراً للطريق إلا أنني ألحّ عليها اتخاذ شارع سليمان باشا وجهة لنا، ترضخ لرغبتي الملحة مندهشة. تقول:

- لِمَ تحاول إطالة الطريق؟

يا لتلك المرأة، أما تدري أنني راغب في استعادة ذكرياتي الجميلة التي رأيتها اليوم؟ كدت أخبرها بما يدور في رأسي إلا أن خشيتي من فتح باب الحوار في ذات الموضوع مرة أخرى قد يعكر صفونا جعلني أحجم عما انتويته، ها هو ميدان طلعت حرب العتيق والذي يحلو لي دائما تسميته بميدان مدبولي، هذا الرجل بالتأكيد هو رمز المكان الخالد، تتجه عيناي نحو مكتبته التي أضاءت أنوارها الفلورنسية البيضاء، تبدو وكأنها قطعة من الجنة، تجول عيناي في المكان حيث جروبي الكائن في مكانه منذ القدم وقد أكسبته الأيام شيئاً من الحزن العميق، ألمح البعلي دالفاً من باب دار الشروق، أنبه لينا إلا أني ما كدت أناديه إلا وقالت لي:

– دعك منه.

– لِمَ؟

برغبة داعية:

– ألم تكن في شوق إليّ؟

– وما زلت.

– إذن فلتدعه يذهب إلى حال سبيله.

ننحرف إلى شارع قصر النيل، يا لهذا الطريق الآخذ في التطاول وكأنه لا ينتهي، تلوح لي عمارة الايموبيليا على ناصيتي شارع شريف وقصر النيل، أتأملها فأذكر جيداً أن هذه العمارة لم يكن لها وجود، أذكر أيضاً أني رأيت مكانها اليوم إحدى تلك الفيلات الجميلة بحديقتها الواسعة ذات الأشجار

الوارفة، ألم يخبرني الرجل الكهل بأنها المفوضية الفرنسية القديمة؟ فكيف أكون واهما إذن؟ ليته يأتي الآن كي يؤكد لي وللينا وللعالم أجمع أني لم أكن أهذي، أتأمل المكتبة بواجهاتها الزجاجية اللامعة وقد زادتها الأضواء الصادرة من لمبات النيون ألقاً، كانت غارقة تماماً في صمتها الأبدي، نقترب منها فأتساءل:

– عم تبحثين؟

– إنها رواية لجان بول سارتر.

– أليست مترجمة؟

– بلى، ولكني أرغب قراءتها في لغتها الأصلية؛ الترجمة تشوه النص إلى حد ما.

تدفع الباب الزجاجي بهدوء لينغلق خلفنا، كان المكان هادئاً تماماً لا تكاد تسمع فيه إلا همس بعض الزائرين الذين يحرصون على عدم تشويه الهدوء بأصواتهم، أقف متأملاً الأرفف الكثيرة حولي وقد رتبت عليها الكتب بشكل أنيق، بالتأكيد أن لمدام ايفيت فرازلي الكثير من الذوق والاهتمام بكتبها وإلا ما جعلتها في مثل هذه الصورة المريحة، أتأمل العديد من الكتب المختلفة محاولاً قراءة عناوينها الفرنسية بلغتي الضعيفة، تلك اللغة كثيراً ما تربكني على الرغم من حبي العظيم للكنتها الجميلة، أحاول تهجي الكتب المواجهة لي les forets de la unit. أبحث عن اسم المؤلف لأجده بصعوبة. Jean Louis Curtis. يا لتلك اللغة الصعبة، أرى

لينا وقد انتحت أحد الأركان بينما تتحدث بهمس لا يكاد يصل إلى مسامعي مع مدام فرازلي التي يبدو على وجهها آثار الزمن الطويل الذي عاشته، كانت مدام فرازلي تومئ لها لتتجه إلى أحد الرفوف متأملة برهة بينما يدها المعلقة في الهواء تمتد لإخراج أحد الكتب، يبدو أن المرأة عليمة بأسرار مكانها الخاص، تعطي الكتاب للينا التي يبدو على وجهها فرح طفولي عجيب حينما تتناوله، تقترب منّي وقد ملأتها البهجة، أحاول تهجؤ اسم الكتاب فتقول لي لينا بفرنسية رصينة:

- L'age de raison.

أنظر إليها متغابياً لتنطلق ضحكتها التي تحاول كتمانها بيدها التي ترتفع لتغلق فمها خشية تشويه الهدوء المخيم على المكان. تقول:

- Pardon لم أقصد، نسيت أنك لا تجيد الفرنسية.

كنت أستاء كثيراً من طريقتها في الحديث التي تحاول فيها مزج الفرنسية بالعربية، كانت تشوه الجمال الآسر للغة بتلك التداخلات الشاذة إلا أنني حاولت مجاراتها على سبيل المزاح فأقول لها بإنجليزيتي التي أفهمها:

- Don't worry ولكني لم أفهم منك شيئاً.

تقول جادة بينما نخرج من المكان:

- إنها رواية سن الرشد لجان بول سارتر.
- أذكر أن هذه الرواية عندي في نسختها العربية إلا أنني لم يواتني الوقت لقراءتها.
- حاول أن تفعل؛ فهي جديرة بالاهتمام.

نخرج لعرض الشارع في كمونه الليلي، كم أحب هذا المكان وقد خلا من رواده، وقتها أشعر وكأن القاهرة ملك لي وحدي، أنا فقط ملك هذا المكان المهان وقد توجت عليه، وقتها أشعر برغبة أسطورية وكأنني قد خرجت من حكايات ألف ليلة وليلة بتغيير المكان كي أعيد له عمقه الذي كان، يخيّل لي أنني أستطيع الإشارة بيدي هكذا فيتم محو كل هذه التغيرات الطارئة تاركة مكانها عبقها القديم الآسر:

- كم أحب القاهرة ليلاً.

تنطلق منّي الكلمات وكأنني أناجي نفسي فأشعر بيديّ لينا تزيداني ضغطاً إلى جسدها، تقول حالمة بينما خطواتها تحنو على الأرض:

- كم أحبك أنت في جميع أوقاتك.

كان شعرها الأسود الداكن ينسدل على كتفيها متهادياً وقد اكتسب ألقاً، أتنسمه لتمتلئ رئتيّ برائحته الخاصة الدافئة التي تشعرني بدفء جسدها. تقول بدعة مازحة:

- أمصاب بالفتيشية أنت؟

يا لهذه المرأة، كنت أعرف أنها يوما ما سوف تتهمني بهذا الاتهام المجنون حينما اقتنيت سوتيانها الضيق. أقول هادئاً:

- أعشق كل جزء فيك، كل ما له صلة بك أرغبه بجنون.

- وتدعي أنك لا تحبني؟

– أنا لا أكرهك على الإطلاق وسلوكي معك خير دليل على قولي، لعلك الوحيدة من بين الجميع التي تعرف عنّي دقائق حياتي.

– لم أقل أنك تكرهني؛ فلو فعلت ذلك لقتلتك بلا تردد...

– يا لك من رومانسية.

كنا قد اقتربنا من الأمريكين الكائن عند ناصية 26 يوليو، نحث الخطى باتجاه منزلي العتيق ذي الدرجات المرتفعة التي تكاد أن تشعرك بأن أنفاسك قد هربت منك لتتركك على شفا الموت، أشعر بدبيب الرغبة إلى لينا يهزني، أأشتاق إليها وهي بين يديّ؟ ما أن دلفنا من باب البيت الكائن بجوار معرض السيارات الذي شوه واجهة البيت السفلية إلا وواتتني رغبة مجنونة في حمل لينا بين ذراعي خشية شعورها بالإجهاد من صعود الطوابق الأربعة، أرفعها عن الأرض لتنفلت منها ضحكة مندهشة من فعلي:

– يا لك من مجنون.. انك...

تنطبق شفتاي لاثمة شفتيها في رغبة مجنونة فتصمت متأوهة وكأنها تتذوق شيئاً ذا مذاق جميل، صوت أنينها الملتذ يزيدني رغبة بينما أسنانها تضغط شفتي السفلى ضغطاً هيناً بطريقتها التي أعشقها فيها، تولج لسانها داخل فمي فأمتصه ناهلاً منه على مهل، أشعرها تكز بقوة على شفتي حتى كادت أن تدميها، طعم ما مالح أستشعره دافئا في فمي يؤكد لي أنها قد

أدمت شفتي التي انثال منها الدم الممتزج بلعابها بــين شــفتيها، تزداد الرغبة الصاخبة داخلي حينما يزداد ضغط أسنانها علــى شفتي فأنهال على وجهها لثماً، لم أدر بالدرجات التي صــعدتها إلا حينما ألفيتنا أمام باب شقتي وقد صار جسدها لينــا ينســاب كالماء بين أصابعي.

الهزيع الأخير

في الهزيع الأخير من الليل كنت أنا ولينا نكاد أن نقذف حدود المكان المحيط بنا بشواظ هائلة من الحمم البركانية السائلة التي تحول إليها جسدانا المنصهران، عري جسدها له تأثير خاص على حواسي الملتهبة؛ فأشعرني وكأنني أغوص في دوامات هائلة عميقة متسارعة من اللذة الشبقة التي تأخذني إلى أعماق لامتناهية، كانت شفتي السفلى المضعضعة بفعل أسنانها الشبقة قد فقدت حساسيتها تماماً حتى لكأن دبيباً واهناً من النمل يسري فيها ثم لا أشعر بها بعد ذلك، ما لهذه الشهوانية الدموية تتملك على هذه الخلاسية لحظاتها الليلية؟ أشعرها تضاجعني بكل ما في جسدها من رغبة وكل ما فيها من قوة وكأنها على وشك فقدي، أسمع صوت تأوهاتها المتعالية التي تنطلق في جميع أرجاء المكان، فيها لذة قصوى راغبة في المزيد، كانت قد طرحتني أرضاً حينما شعرت بجسدها يكاد أن ينفجر من فرط مداعباتي له، أشعرها تخلع ملابسها على عجل لتستلقي عليّ معتلية إياي عارية تماماً بجسدها النافر في كل زاوية من أركان المكان، تجول يدي حرة طليقة في جميع أرجاء جسدها. يا لثرائه الشامخ. كان لهذا الجسد اعتزاز غريب بذاته لا تكاد تدري له سراً، تستقر يدي على نهديها النافرين، أحاول إحاطتهما بكفي إلا أنهما ينفلتان منهما لشموخهما اللين، أدور بأطراف أصابعي على دورانهما لأداعب حلمتيها ذاتا الهالة

الداكنة حولهما، أسمعها تئن ملتذة فأنكب على حلمتيهـــا ماصـــاً إياهما، كنت أكز عليهما بحنو إلا أن الرغبة العارمة السارية في جسدي جعلتني أكاد أن أقضمهما، صوت أناتها المتعالية فيهـــا الكثير من الألم الممتزج باللذة، تقول صارخة:

- كفاك...

كانت المرأة تضاجعني بطريقتها الخاصة جداً ذات الدربـــة الجيدة، لها طريقة آسرة تجعلك أسيراً لها وقد وقعت في دوامات من الخدر البعيد، أشعرها صاعدة هابطة تجعلني أنتفض لـــذة. لديها قدرة عجيبة في التحكم بعضلاتها حتـــى أنـــك تشـــعرها تقبضها بحركة تموجية رائعة حتى تنقبض تماماً، كنت أســـتمتع كثيراً بتلك الطريقة الخاصة بلينا وحدها، من أين لها بهذه الدربة الخاصة؟ لها أسلوبها الخاص في كل شئ، تراءى لي في وقـــت ما أن جمالها وثقافتها فقط لهما أسلوب خاص في الحيـــاة إلا أن أسلوب ممارستها الحب أيضاً أكثر جمالاً، كان الخدر اللذيذ قـــد سيطر على جسدي بينما لينا تفعل بي ما يحلو لها وقد تهت في أفكار خاصة عجيبة، عيناها الواسعتان ذاتـــا التضـــاد اللـــوني الجميل كانتا ناعستين هائمتين في عالمهما الخاص مـــن اللـــذة، شفتاها متشنجتان بطريقتهما الخاصة لتشكلا العديد من الحركات المختلفة، حركة مفاجئة بدرت منها جعلتني أنفلت منزلقـــاً مـــن داخلها، تتحرك كفها المكتنزة ذات الأصابع المســـحوبة بهـــدوء ورغبة مستميتة لتقبض عليّ، أتأمل كفها الرائعة، تبتلعني بينما يعتمل داخلي تساؤل غريب لست أدري مصدره. يا للجنون، ما لهذا السؤال الذي يضرب أركان جمجمتي البائسة وكأنه إحـــدى الكرات المطاطية وقد قذفت بقوة لتأخذ في الارتـــداد المتبـــادل؟

أحاول إبعاد السؤال عن خاطري إلا أنه كان يصر بضـــراوة، ينفلت فجأة من فمي كانهيار مباغت لجبل من الثلج:

– كيف افتضت عذريتك؟

كنا في أوجنا الشامخ فهبطنا فجأة إلـــى أعمـــاق ســـحيقة، تنزوي الرغبة المعتملة فجأة فتختفي، يتوقف بنا الزمن آنياً حتى لكأننا انتقلنا إلى فراغ تام لا حدث فيه علـــى الإطـــلاق، فقـــط اللاشيئ الهائل الذي يحيطنا، كانت لينا قد تجمدت فجأة على اثر سؤالي المباغت، تهبط من فوقي، أرى في حركتها هدوءاً عجيباً وكأنه ذلك الذي يسبق العاصفة، تبحث عـــن ملابســـها بتـــؤدة لتخرج علبة سجائرها متناولة واحدة، تشعلها مفكـــرة لتســـتلقي مسترخية على الأريكة، أتأملها في جلستها المتكئة على مرفقها وقد ثنت إحدى ساقيها نصف ثنية بينما تدلت الأخـــرى أســـفل الأريكة، الانفراج الناشئ من وضع ساقيها جعلني أكـــاد أدفـــن نفسي فيه. تقول مفكرة:

– ما أهمية معرفتك لذلك؟

أطرح على نفسي السؤال مندهشاً، بالفعل ما أهميـــة ذلـــك بالنسبة لي؟ هل سيحدث تغييراً ما؟ وما الذي جاء بهذا التفكيـــر اللعين إلى رأسي؟ أهي فعلا طريقتها ذات الدربة الخاصة فـــي الممارسة هي التي دفعتني إلى مثل هذا التساؤل أم أنها رغبتي الدائمة في معرفة البدايات؟ أرد متحيراً:

– بالتأكيد أنت تعرفين جيداً أني لا أفكر كهؤلاء المحيطين بنا، ولكني في ذات الوقت لست أدري سبباً لمثل هـــذا التســـاؤل الذي ورد على ذهني فجأة فسألته.

كانت قد اطمأنت إلى حد ما، فقالت:
- لم لا تأت بكأس من النبيذ؟

أنهض هادئاً في عريي الآخذ في الكمون، أصب لها كأساً من النبيذ متناولاً زجاجة بيرة لي، أناولها كأسها فتجذبني من يدي مطوقة إياي على الأريكة، تقبلني بنهم غريب لتقول بعد ابتعاد شفتيها الآسرتين:

- رفضي لما يحيطني من هراءات تعشش في أدمغة مجتمعنا المتهرئ هي التي جعلتني أفض بكارتي.

ينطلق سهم الدهشة في عقلي فيصيبه بالشلل التام عن التفكير، أحاول النطق إلا أن التصاق لساني بمؤخرة حلقي وكأنه قد تم تثبيته هكذا منذ الأزل بمادة غرائية قوية جعلني أصمت، أقول بعد فترة ليست بالقصيرة وقد توارد إلى ذهني العديد من التكهنات:

- كيف كان ذلك؟

ترتسم على محياها بسمة ساخرة لتنطلق ضحكتها المجلجلة ذات الانسحاب الأخاذ قائلة:

- صدقني، إن مقتي لهذا المجتمع يفوق مقتك إياه إلا أنني أحاول بشتى الطرق التكيف معه؛ ليس حفاظاً على مصالح ما فيه ولكن لأن العزلة حقيرة حتى ولو كانت بإرادتي.

يسري صوتها في هدوء الليل منساباً، كانت وكأنها تناجي ذاتها بينما الكلمات تتتالى من فمها مندفعة بهدوء:

- النظرة العميقة لما حولي جعلتني أرى في هذا المجتمع القبيح صورته الشائهة التي لا تتعامل مع المرأة منا إلا من خلال

غشاء بكارتها، هذه النظرة القاسية تـؤلمني كثيـراً.. أيـتم التعامل معنا على أننا شيئ ما إذا تم استعماله من قبل الآخر فهو مرفوض لا قيمة له؟

أراها ترفع كأسها لتجرعه دفعة واحدة ثم تتناول سيجارتها التي أوشكت على الانتهاء لتمتص دخانها بـنهم، تقـول بينمـا يخرج الدخان الكثيف من فمها ومنخريها ليغطي جمال قسماتها:

- بالله عليك قل لي.. ما معنى العذرية عند هـؤلاء الحمقـى؟ أليس هناك الكثيرات اللاتي يحافظن على أغشيتهن الملعونة تلك وعلى الرغم من ذلك فإنهن لا يعدون أكثر من مجـرد داعرات يفعلن ما يحلو لهن دون دراية أحد؟

أقول هادئاً:

- في المقابل هناك من فقدن أغشيتهن فـي إحـدى لحظـات الاندفاع البريء وعلى الرغم من ذلك ما زلن عذراوات.

مندفعة:

- هذا هو ما أوصلني إليه تفكيري، فأنا أرى أن العذريـة هنـا روحية وليست جسدية.

أقول ساخراً:

- علّه تفكير أحمق من هؤلاء الرجال الذين يوهمـون أنفسـهم بأشياء لا طائل من ورائها.
- بالتأكيد هم موهومون والدليل على ذلك أن هناك الكثيـرات اللاتي فقدن عذريتهن المادية وبالرغم مـن ذلـك خـدعن أزواجهن حينما قمن بعملية ترقيع مشينة ليلة زفافهن لينتشي الزوج وينام قرير البال.

أقول مبتئساً:

- يا لتلك النظرة القاسية.

- أجل إنها نظرة مهينة وليست قاسية فقط؛ ولأنها هكـذا فلقـد سيطرت عليّ رغبة عارمة في تحدي مثـل هـذا المجتمـع الأحمق؛ ولأني أرى أن عذريتي روحية فـي المقـام الأول وهي ملكي أنا وليست ملك الآخرين.

لم أدر ماذا أقول لها، أضمها إلى صدري شاعراً بعريهـا، جسدها الباذخ في عطائه جعلني أضمه بحنو، أشـعر بأنفاسـها الحارة تصطدم بصدري بينما أصابعها تداعب الشعيرات القليلة النابتة فيه، تجذب إحداها بغتة فأنتفض لتنطلق ضحكتها. تقـول بعد الانسحاب البطيء لضحكتها الآسرة:

- أتدري أنك الأول في حياتي، ذلك الجسد لم يمسسه غيرك؟

أسمعها تناجيني بلهجتها العاشقة بينما التسـاؤلات الملحـة تترى على ذهني، ما لهذه المرأة تحاول حصاري بحبها؟ ولكن ما المانع الذي يمنعني من ذلك؟ على الرغم من عدم وجود مانع ما إلا أن مشاعري العاطفية التي يبدو أنها قد تجمدت منذ زمن بعيد تأبى الانسياق لها. ولكن ماذا لو جاريتها في عشـقها؟ لا.. لا يمكن أن أكون مخادعاً خاصة مع لينا، تلك التـي أشـعرها جزءاً من كياني. أقول متردداً بينما لساني يتلجلج:

- لينا.. أنا أرفض أن أكون مخادعاً لك.

مندهشة:

- كيف تخدعني؟

- لست أجرؤ.. ولذلك أرغب في وضع أساس لعلاقتنا الآن.

فرحة:
- أي أساس هذا؟
- أرجوك حاولي أن تفهميني.. أنت تدرين جيداً أني لا أكرهك.
- بالتأكيد وإلا كنت قد قتلتك.
- تعلمين أيضاً أني لا أحبك بذلك المعنى العاطفي.
تقول بينما لم يصلها فحوى كلامي بعد:
- لا عليك.. فلتحبني بأي شكل يحلو لك...
ثائراً:
- لينا، حاولي فهمي ولا تجعلي الأمر صعباً.
- أي أمر هذا؟ صدقني أنا لا أفهمك.
متنهداً:
- أعرف ذلك، فأنا نفسي لا أفهم ماذا أريد، ولكن ملخص الأمر أني قد ارتبطت بك ارتباطاً قوياً لست أدري كنهه حتى أنني لا أتخيل فراقك لحظة واحدة، ربما لثقافتك التي لم أنتظرها فيك، ربما لذلك السحر الذي يحيط جسدك، ربما لأنك الوحيدة دون الآخرين التي تشعر بي في كل أوقاتي قادرة في ذلك على فهمي، ربما لأمور كثيرة لا أستطيع تعدادها فيك ولكن ليس معني هذا الارتباط القوي بك أني أحبك بذلك المعنى العاطفي بمعنى... ال emotion.

تتسع حدقتاها وكأنهما قد جمدتا ففقدتا الحياة، تتجمع في مقلتيها دموع غزيرة تأبى على الانسكاب لتقول مختنقة من أثر غصة تمنعها من الحديث:

- ما معنى هذا الارتباط إذن؟

متحيراً:

- صدقيني لست أدري.. فأنا لا أفعل شيئاً دون استشارتك حتى أنني لا أكتب شيئاً إلا وأتصل بك في منزلك أو أهرع إليك طالباً رأيك، وهذا ما لا أفعله مع مخلوق على الإطلاق.

صارخة وقد انزلقت دموعها على وجنتيها:

- لا يعنيني ذلك في شيئ، إنها أنانية عجيبة سيطرت عليك حتى أنك صرت تبغي الأخذ دون العطاء، صارت ذاتك فوق ذوات الآخرين.
- لست كذلك صدقيني، لينا أنا في حاجة دائمة إليك.
- لا تنطق اسمي مرة أخري أيها الغبي.. أي حاجة تلك التي تدفعك إليّ؟

يا لتلك المرأة التي تتهمني بما لا أقصده، يرتفع صوتها الباكي المتشنج ذو الرجع العميق، أحاول ضمها إلى صدري مهدئاً إياها إلا أنها تدفعني بقوة لأقع أرضاً، أراها تنهض غاضبة لترتدي ملابسها بعصبية حتى أنها كادت أن تمزق بلوزتها الشديدة الضيق حينما استحكمت على الدخول في تضاريسها، تنظر لي متألمة بينما دموعها تنسال غزيرة، أنهض محاولاً إثناؤها عما تنتويه، تقول محذرة بينما صوتها يصلني متقطعاً متشنجاً:

- لا تقترب منّي.. دعني وشأني.

تقولها لتصفق الباب في وجهي بقوة حتى لكأنه قد خلخل الهواء المحيط بي فشعرت بالبناية العتيقة تهتز متزلزلة، ألقي بجسدي متهاوياً على الأريكة التي ما زالت دافئة بدفء جسدها،

يا لها من امرأة، أتغضب حينما أصارحها بحقيقة مشاعري؟ وماذا في ذلك؟ أعتقد أن النساء جميعاً يرغبن في خداعهن، لا، إلا لينا؛ فهي ليست ككل النساء، أنهض وقد شعرت بساقيّ متخاذلتين، أتناول زجاجة بيرة مثلجة لأجرعها على دفعتين، أتأمل الشقة العتيقة حولي التي ما زالت عابقة بشذى لينا الخاص، تقع عيناي على المنضدة القريبة فأرى كتابها الذي كانت قد اشترته منذ بضع ساعات من مدام ايفيت فرازلي، غضبها الشديد جعلها تنساه، أحاول تهجؤ اسمه بصعوبة. l'age de raison. أتذكر طريقتها الرصينة في نطق اسمه فابتسم حزيناً، لماذا لا تحاول أن تفهمني؟ أشعر بوحشة غريبة تشملني حتى أنها تشعرني بالفراغ القاتل، لها حضور عجيب يقتل الوحشة حتى لكأني قد اكتسبت الكون بما فيه، كم أنا في حاجة إليها الآن، ولكن كيف سأصالحها وهي بهذا القدر من الرفض الغاضب؟ إنها تذكرني بتلك المرة التي اصطدمنا فيها لذات السبب ولم تعد إلى صفوها القديم إلا بعد محاولات مستميتة تدّخل فيها البعلي للإصلاح بيننا، أجرع المزيد فأذهب في غيبوبتي الخاصة التي أرى فيها لينا تقف بعريها الآسر وقد ارتسمت على قسمات وجهها بسمة أخاذة كادت أن تسلبني لبي، أرى ذراعيها الممدودتين ببذخهما غير المفرط مفتوحتين لي مهيأتين لاستقبالي في أحضانها الدافئة، أشعر بقدميّ ثقيلتين رازحتين على الأرض لا تتحركان قيد أنملة، أسمعها تناديني بصوتها العذب الرقراق، كان له رجع عميق كصوت تأوهاتها المنتشية، أحاول الحركة بلا جدوى، بعد محاولات مستميتة

تتحرك قدماي ببطء شديد، أقطع المسافة الفاصلة بيننا بعد عـــدة قرون طويلة، أتهيأ لالقاء جسدي في أحضانها الدافئة إلا أني ما كدت أفعل إلا ووجدت المسافة الشاسعة التي كانت تفصل بيننـــا تعود مرة أخرى للاتساع، أحاول جاهداً مرة أخري الوصـــول إلى ذراعيها الداعيتين إلا أنني كلما اقتربت منها ابتعدت مـــرة أخرى، وكأنني أحد هؤلاء الأغارقة الذين كتب علـــيهم الآلهـــة استعادة المتاهة إلى اللانهاية، أقترب منها أخيراً بعد الكثير مـــن المحاولات الفاشلة، لم تكد كفها المكتنزة التي أعشقها أن تتلامس مع كفي إلا ورأيتها تتماهى متشكلة لتذوب في الفراغ المحـــيط، أحاول مناداتها بكل ما أوتيت من قوة، أبحث عنها بلا جـــدوى، أصرخ مستغيثاً بها لأفيق من غيبوبتي الطويلة- التي غبتها عما حولي- على صوتي الضعيف الواهن ينادي لينا، كنت ما زلت راقداً على أريكتنا الخاصة منذ تركتني، أنظر في ساعتي فـــإذا هي الثامنة صباحاً. كنت ما زلت غارقاً في عريي الخاص الذي ذكرني بما حدث بيننا، ألملم أشلائي الحزينة مرتـــدياً ملابســـي على عجل، أتناول الهاتف متلهفاً لتدور أصابعي التي تضـــغط أزراره في متتالية عددية لا تنتهي، ينطلق الصوت الرتيـــب ذو الغلظة الخاصة في أذني، ذلك الصوت المعدني الرتيـــب هـــو الصلة الوحيدة التي تصلني بها الآن، يتواصـــل الـــرنين بـــلا جدوى، ينقطع الرنين المعدني فجأة فأشعرني أهوى بقـــوة فـــي حفرة سحيقة لتدفنني داخلها، أعيد المحاولة متشبثا بالأمل الـــذي بدأ ينزوي داخلي، يعود الرنين الغليظ لينقطع فجأة على صوت نسائي غريب، أعرف جيداً أنها تسكن وحيدة وليس هناك مـــن

يشاركها وحدتها، يلتبس عليّ الأمر فأغلق السماعة منزعجاً، أعيد الكرة مرة أخرى ليرد عليّ ذات الصوت الذي يبدو وكأنه قادم من سباته الليلي العميق. أقول متردداً:

– أأستطيع محادثة لينا؟

ببرود حيادي:

– لينا من؟

أندهش للسؤال البارد فأعيد عليها تلاوة الرقم الذي طلبته متأكداً خشية أن أكون قد أخطأت الرقم. ترد عليّ قائلة:

– أجل، هذا هو الرقم الذي طلبته تماماً.

حائراً:

– أين لينا إذن؟

– أية لينا ؟

– لكن هذا هو رقمها الذي أحفظه عن ظهر قلب والذي طالما هاتفتها عليه.

– لا توجد هنا من تدعي لينا، وأرجو ألا تعاود الاتصال مرة أخرى.

تقولها المرأة الباردة لتغلق السماعة بغتة، ينطلق في أذني ذلك الصوت الآلي الرتيب الذي يدل على انتهاء المحادثة، أبحث عن مفكرتي التي أحتفظ فيها بأرقام الهواتف، أبحث عن لينا علّني أخطأت في طلب الرقم، بالضبط هو الذي طلبته الآن لا خلاف فيه، إذن فمن تلك الثلجية التي ردت عليّ؟ لا بد أن هناك خطأ ما، أضع المفكرة أمامي لأعيد طلبها مرة أخرى، يرد عليّ ذات الصوت فلا أقوى على الرد. أقول بعد فترة:

– سيدتي لا تؤاخذيني، ولكن أهذه مزحة سخيفة؟

غاضبة:
- أي مزحة هذه؟
أعيد عليها تلاوة الرقم فتؤكد لي أنه لا يوجد خطأ في رقم الهاتف، ولكن ما من واحدة بهذا الاسم هنا، أضع السماعة وقد شعرت بأنفاسي تختنق، كيف يمكن أن يكون هذا؟ أتذكر هاتف عملها فأحاول مهاتفتها عليه إلا أن المفاجأة القصوى التي كانت تنتظرني سقطت على رأسي كالصاعقة لأشعر بالكون من حولي يتزلزل ناثرا أشلاءه عليّ، واجهني الرد القاسي الغليظ ذاته في عملها، حاولت التأكد إلا أن مدير مركز الترجمة أكد لي أنه ليس هناك مترجمة لديهم تحمل ذلك الاسم على الإطلاق، بل وأكد لي أنه لم يقابل مثل هذا الاسم من قبل، كيف يحدث ذلك؟ لقد هاتفتها مراراً عديدة على هذين الرقمين، أذكر جيداً أنها كانت ترد عليّ في كل مرة أهاتفها فيها، من أين نبع ذلك الخلط إذن؟ أوتكون لينا هي التي تفعل ذلك راغبة في الانتقام منّي؟ لا.. هي لا يمكن أن تفعل بي هذا، أغوص في تساؤلاتي التي تزيدني حيرة على حيرة. أتناول الكثير من النبيذ مؤكداً لنفسي أنني لست واهماً، تقع عيناي على كتابها الذي اشترته بالأمس فقط ونسيته حين خروجها، أحتضن الكتاب محدثاً إياه، له دفء غريب كدفء جسد لينا تماماً، لا بد أن أجدها، أجل، فهذه الدائرة الضيقة التي تكاد أن تغلق عليّ قاربت على إصابتي بالجنون، أتذكر أن البعلي هو الوحيد القادر على تأكيد حيرتي تلك، أجل، فلقد عرفتها من خلاله وهو الوحيد الذي كان يتدخل لاصلاح ذات بيننا، أين أجده الآن؟ أجل، سأهاتفه على تليفونه المحمول، أضغط أرقام هاتفه متلهفاً، أعزم على عدم مفاتحته

في الأمر من خلال الهاتف، لا بد أن أرى تعبير وجهــه حــين حديثي معه، أليس من الممكن أن يتواطأ الجميع عليّ من أجــل دفعي للجنون؟ ينقطع الصوت المعدني الغلــيظ علــى صــوته الهادئ الذي أحفظه جيداً، أقول محاولاً تصنع الهدوء:

– لا بد أن أراك الآن.

منزعجاً:

– لماذا؟ أهناك ما يسوؤك؟

– لا.. ولكني أرغب في رؤيتك لأمر هام.

– لا بأس.. أراك بعد نصف الساعة على أفتر ايت.

– اتفقنا.

أغلق الهاتف وقد تأكدت تماماً أنه لن يخــادعني، ســيدلني على مكان لينا، لا شك في هذا، أتجه للحمام كي أصدم جســدي الملتهب بالماء البارد، أشعر بالماء ساخناً رغم برودته الشديدة. أويكون قد اكتسب حرارة جسدي اللاهب؟ شئ من البهجة بــدأ ينتابني لإحساسي باقترابي من العثور على لينا، أرتدي ملابسي متعجلاً لأحذو الخطو في اتجاه أفتر ايــت، أتأمــل اكسلســيور برواده القلائل الذين بدأوا يتوافدون على المكــان، يخيــل لــي رؤيتها جالسة على طاولتها المنزوية في أحد الأركان، يــزداد وجيب قلبي إلا أنها لم تكن هنــاك، أحــث الخطــو خشــية أن يستأخرني البعلي، ما أن أراه جالساً في ذلك الممر الذي علــى يمين الداخل من شارع الأنتكخانة الذي كان مكان لقــائي الأول بلينا إلا وتشتد ضربات قلبي الواجفة حتى لكأنها تحدث زلــزالاً هائلاً في قفصي الصدري الواهي، أحييه متلهفا فيقول بصــوته

العميق الهادئ:

- ماذا هناك؟ لقد أزعجتني.

أتأمل قسمات وجهه جيداً لأتأكد من ردود أفعاله التي لا بد ستظهر واضحة جلية عليه، أسأله مباشرة دون أية مقدمات:

- أين لينا الآن؟

ترتسم على وجهه علامات الدهشة الصادقة الممتزجة بالحيرة ليقول:

- لينا من؟

أرد محاولاً التماسك:

- بعلي، إنك الصديق الوحيد لي والذي أكن له قدراً غير هين من الاحترام، أرجوك لا تتلاعب بي.

يرد مندهشاً:

- صدقني لا أعرف عما تتحدث.. كن أكثر وضوحاً وتأكد أنه لا يوجد ما يبرر خداعي لك.

متمسكاً بالصبر:

- أتذكر يوم هاتفتك في تلك الليلة الممطرة وطلبت لقاءك فأشرت عليّ بأفتر ايت بدلاً من البستان؟

- أجل.. أذكر هذا، وأذكر أيضا أننا استكملنا سهرتنا في بار "كاب دور" بعد أن تناقشنا في مقالك عن فيلم "أرض الخوف" وبعد انتقادك الحاد للمجتمع الذي يقبل "اللمبي" وأمثاله.

أقول مبتهجاً:

- في تلك الليلة ألم تعرفني على لينا التي تعمل في مجال الترجمة وتكتب القصص القصيرة؟ وكان هناك شاب

يشاركنا الجلسة وسرعان ما انصرف ربما لجهله المطبق؟

- أما عن ذلك الشاب فأنا أذكره جيداً، ولكن لينا تلك التي تتحدث عنها فلست أدري عنها أي شئ على الإطلاق، بل أنا لم أقابل في حياتي من تدعى بهذا الاسم هذا فضلاً عن عدم اختلاطي بفتاة تعمل في مجال الترجمة من قبل.

رغبة عارمة من الغضب تدفعني لتحطيم رأسه، أحاول التماسك أكثر نافياً من رأسي شكل رأسه المسحوق وقد خرج منه مادة هلامية بيضاء مختلطة بالدم القاني، أروي له ما كان بيننا في تلك الليلة والهاتف الذي جاءه ونحن في طريقنا للبار وتلك الحياة الشبيهة بالفردوس الحقيقي التي عشتها مع لينا، أؤكد له ذلك الخلاف الذي أصلحه بتدخله من قبل ثم ذلك الخلاف الآخر الذي كان بالأمس، كنت أرى ملامحه التي بدت لي الآن كريهة مشوهة تتشكل أمامي بالدهشة، كنت كلما أسهبت في الحديث كلما رغبت شفتاه بالنطق ليتهمني بالجنون، ما أن انتهيت من روايتي إلا وأطبق علينا صمت ثقيل كاد أن يخنقني. أقول حانقاً:

- مالك تصمت هكذا؟
- ماذا تريد منّي أن أفعل؟ أأقوم راقصاً كالمجنون لأن عزلتك اللعينة جعلتك تهذي؟
- أي هذيان هذا؟ يبدو أنك أنت الذي يهذي أو أنك تتآمر عليّ بالتعاون مع الآخرين لدفعي للجنون.
- لماذا نفعل ذلك؟ أنت تعرف مقدار حبي لك.

كان كلامه عقلانياً إلى حد بعيد، ليس هناك ما يبرر تلك المؤامرة التي أتخيلها، ولكن كيف يكون كل هذا وهما؟ إنها حياة

حقيقية عشتها بكل ما فيها، بالتأكيد هي حياة حقيقية وإلا من أين يكون قد أتي ذلك السوتيان الضيق الكامن في خزانة ملابسي؟ دعك من هذا، كتاب جان بول سارتر الذي ما زال في مكانه حتى الآن منذ وضعته لينا بيدها على المنضدة، من الذي جاء به إذا لم تكن هي؟ أتذكر رؤيتي له بالأمس عند دار الشروق عندما كنا في طريقنا أنا ولينا إلى عمارة الايموبيليا. أقول مندفعاً:

– ألم تكن البارحة في مكتبة دار الشروق؟

– بالتأكيد كنت هناك.

– لقد رأيتك أنا ولينا وما كدت أناديك إلا وطلبت منّي عدم فعل ذلك.

يقول متشككاً:

– أشربت اليوم كثيراً؟

مغتاظاً:

– أنت حقير.

– دعك من كوني حقيراً أم لا فهذا الرأي يخصك أنت وحدك، ولكن ما أود أن أقوله لك بصدق هو ألا تحاول الانسياق خلف هذه الخيالات التي ستجعلك مجنونا.. حاول الخروج من عزلتك؛ فلست المثقف الوحيد الذي يشعر بالعجز والإهانة والضيق من هذا المجتمع المتخلف.. كلنا نشعر بذات الشعور إلا أننا لم نختر العزلة الغريبة التي اخترتها لأننا نعلم جيداً أنها موقف يبدأ بالجرأة لينتهي بالمرض النفسي.. فلتحاول الزواج، معرفة الفتيات، أي شئ، المهم ألا تظل هكذا.

كان البعلي يتحدث بينما عقلي يشرد في عوالم أخرى بعيدة عنه تماماً، لم أدر إلا بساقيّ المثقلتين تحملاني بعيداً عنه متلقفاً الهواء البارد الذي بدأ يهب ليصفع وجهي، ربما اندهش لفعلـــي هذا، لم أدر إلام أتوجه إلا أن ساقيّ المتعبتين اتجهتا بـــلا إرادة إلى اكسلسيور، أدفع الباب بهدوء شارداً عما حولي، ابحث عن النادل الذي كان هنا بالأمس، ذلك الذي ظنني معتوهـــاً حينمـــا تحدثت معه، أنتحي أحد الأركان لأشير نحوه، يأتيني مســـرعاً وقد بدت على وجهه علامات التذكر، أطلب كأساً مـــن النبيـــذ لأبادره بالسؤال:

– أتذكرني؟

– بالتأكيد سيدي، فأنت زبون دائم هنا.

– لقد كنت هنا بالأمس، أليس كذلك؟

مندهشاً:

– بالطبع سيدي.

– أتذكر تلك الفاتنة التي كانت معي؟

– من لا يذكرها سيدي؟ إنها تأتي معك دوماً.

ها هو النادل إذن يذكرها، علّه الدليل القـــوي علـــى عـــدم هذياني، إذن فالآخرون متواطئون عليّ كما كنت أظن، تشملني رعدة قوية ممتلئة بالبهجة الشديدة، ذلك الرجل الذي كان يتلمظ وكأنما قد ملأته الشهوة حينما حدثته عن لينا يذكرها جيداً، الأمر لم يكن حلماً إذن، أتناول كأسي مسرعاً لأخرج صـــوب بيتـــي، ألمح النادل أثناء خروجي متحدثاً مع زملائه وقد بـــدت علـــى وجوههم جميعاً علامات السخرية التي تتهمني بالجنون، عيونهم

المتفحصة إياي تدل على أن الرجل كان يجاريني ظناً منه أنني معتوه، لا، لا بد أنه يهيأ لي ذلك، فلقد أكد لي تواجد لينا معـــي هنا بالأمس، تلك النظرات الشهوانية التي بدت في عينيه خيـــر دليل على صدق كلامه؛ فحضورها له مثل هذا الفعل الشهواني العميق، علّهم كانوا حزانى عليّ نتيجة فقدي حبيبتي، أسرع نحو منزلي العتيق، ما أن أدخله إلا وأتنسم داخله عطر لينا الغامض الذي يعبق المكان، لها رائحة سرية غامضة تفوح مـــن مســـام جسدها في حالات فرحها وزهوها بينما تختفي تماما في حالات حزنها. أتناول كتابها الذي اشترته بالأمس مـــن مـــدام ايفيـــت فرازلي، أسرع هابطاً نحو عمارة الايموبيليا، ســـأؤكد للجميـــع ولنفسي أيضاً أنها ليست وهماً بل هي حقيقة راســـخة رســـوخ جبال الأرض جميعاً، ما أن اقتربت من عمارة الايموبيليا حتى شعرت بصاعقة تهبط على رأسي، كانت المكتبة مغلقـــة تمامـــاً بأبواب حديدية صماء لها أشكال هندسية منتظمة، تبدو الكتـــب من خلف واجهاتها الزجاجية كما رأيتها تماماً بالأمس، ولكن لم هي مغلقة هكذا؟ أسأل أحد المحال المجاورة الذي يخبرنـــي أن شركة الشمس المالكة للعمارة لم تكد تعلم بموت صاحبتها ايفيت فرازلي وإغلاق المكتبة ثلاثة أيام حداداً عليهـــا إلا وحاصـــرت المكان بالسلاسل والجنازير لمنع الورثة والعاملين من الدخول. كنت أنظر للرجل بتشكك واضح، كيف تكون مدام ايفيـــت قـــد ماتت منذ شهرين كاملين على الرغم من أني رأيتها هنا بالأمس فقط تقف مع لينا؟ ألم ألمح وقفتها الهادئة حينما سألتها لينا عمـــا تبغيه؟ لقد رأيت يديها الماهرتين وهما تمتـــدان لإخـــراج هـــذا

الكتاب، أترك الرجل لأسير على غير هـدى، أتأمـل الكتـاب بعمق، أعرف جيداً أنني لا أجيد الفرنسية فمن أين أتـى هـذا الكتاب إذن؟ بالتأكيد هو ليس وهماً؛ فكل من يراه سـيؤكد أنـه كتاب فرنسي، ولكن من الذي أتي به إذا لم يكن للينـا وجـود؟ أذكر سوتيانها الضيق في خزانة ملابسي، كانت قد تركته منـذ قلت لها أنه يجرح جمال نهديها فأعرضت عن ارتداء مثل هذه الأشياء مرة أخرى، أذكر أيضاً أنها قد جرحت شـفتي السـفلى بالأمس وما زلت أشعر بألمها، ألم تعضعضها بأسـنانها حتـى أدمتها؟ ولكن أين هي الآن؟ وما الذي ينبغي علـيّ تصـديقه، شواهدي تلك أم شواهد الآخرين؟ أحاول الهروب من أفكـاري المصطخبة مؤكداً لنفسي أنها لا بد سوف تأتي لي مرة أخـرى في ذات الموعد الذي كان بيننا بالأمس في اكسلسـيور، أهـدئ لخاطري مبتسماً حاثاً الخطو إلى اللاجهة.

25 مايو 2003

28ديسمبر 2003